الفصل الحادى عشر

الأرض الخراب [1]

إن الاتجاهات السالفة تمهد لنا الطريق إلى الإلمام بقصيدته المعقدة التى أطلق عليها اسم « الأرض الخراب » ، وفيها كرّس إليوت كل إمكانياته للتعبير عن القضايا الفكرية المتزاحمة التى راودته منذ أمد طويل . فهذه القصيدة تجسم لنا ما نعانيه من يأس وقنوط ، وما نحس به من آمال زائفة ، وبعدٌ عن حقيقة الحياة ، وجهل مطبق بأسرار الكون ، وجوهر الوجود ، وانفصام فى عرى المعارف والمدركات ، وخلط بين الحقيقة والخيال ، واللب والمظهر ، وكنه الأمور وأعراضها الخارجية . ومن الطبيعى أن يتخذ إليوت الرمزية أساساً للتعبير عن هذه القضايا المتشعبة ، كما استعان أيضاً بالصور الشعرية البليغة ، فحددت هذه القضايا ، وأبرزتها أمام القارئ بعد أن صيغت فى قالب موضوعى قوامه التعادل بين الفكر والعاطفة . وأمام هذا التشعب تخطت محاولاته ودراساته فى هذا المضمار ميدان الأدب الإنجليزى لتشمل الفكر العالمى ، شرقياً كان أم غربياً ، قديماً كان أم حديثاً . فهذه القصيدة تتعرض للبشرية جمعاء منذ الخليقة الأولى حتى يومنا هذا ، ومن المعتقدات والمبادئ التى سادت المدنيات العالمية القديمة فى الهند والصين ومصر وممالكتى بابل وأشور إلى الاتجاهات الفلسفية الحديثة فى أوربا .

ولهذا تعد هذه القصيدة بحق من أعظم الأشعار التى كتبت فى عصرنا الحاضر ، فترجمت إلى لغات عديدة ، وبالرغم من مضى سنوات عدة على كتابتها إذ أنها

---

(١) "The Waste Land"

يجد القارىء فى الجزء الأخير من هذا الكتاب تحت عنوان « نصوص مختارة من مؤلفات إليوت » بقية النصوص المكملة لهذه القصيدة فهى مترجمة بأكملها نظراً لأهميتها فى ميدان الشعر الأوربى الحديث

ظهرت عام ١٩٢٢ ، فإنها ما زالت لغزاً محيراً للكثيرين من رجال الفكر والقلم . فلا غرو إذن إن اعترف إليوت فى مذكراته بصعوبة هذه القصيدة إذ قال عنها أنها «قصيدة مهوشة يعوزها التناسق» . (١) وعلى أية حال فلقد كتب إليوت هذه القصيدة فى (لوزان) حينما سافر إليها للاستشفاء فى شتاء عام ١٩٢١ ، وبعد قضاء ثلاثة أشهر جاء إلى باريس ومعه القصيدة وهناك قدّم المخطوط إلى الشاعر الأمريكى « إزرا باوند » لمراجعته ، فقام باوند بحذف ما يقرب من نصفها ، أما النصف الآخر فهو ما نراه متضمناً فى ديوان إليوت . واعترافاً منه بهذا الفضل كتب إليوت هذا الإهداء على صفحتها الأولى :

« إلى إزرا باوند : الذى يفوقنى حذقاً ومهارة »(٢) .

ونظراً لتعقيد هذه القصيدة فقد ذيلها إليوت بعدة ملاحظات لتساعد القارئ على فهمها وتتبع سياق الأفكار فيها . واعترف فى مستهل هذه الملاحظات بأنه قد استند إلى كتابين هامين اقتبس منهما عدة اتجاهات ومبادئ رمزية ، إذ يقول :

« إن كتاب الآنسة جسى وستون " من الطقس إلى القصة الخيالية " (الذى طبع فى كمبريدج) عن أسطورة الإناء الطاهر لم يرمز إلىّ بعنوان القصيدة فحسب بل وبهيكلها والكثير من رمزيتها العارضة . وفى الحقيقة إننى مدين بالشىء الكثير لكتاب مس وستون فهو الذى سيوضح صعوبات هذه القصيدة بطريقة تفوق ملاحظاتى عنها ؛ وإنى لأذكر هذا الكتاب (بالإضافة إلى المتعة الكبرى فى قراءته) لكل من يظن أن هذا الإيضاح لازم لفهم القصيدة . كما أننى مدين أيضاً بوجه عام إلى كتاب آخر فى علم دراسة الجنس البشرى ، وهو الذى أثر تأثيراً عميقاً فى جيلنا الحاضر ، وأعنى بذلك كتاب " الغصن الذهبى " ؛ فلقد استعملت المجلدين

(١) "A sprawling chaotic poem"

(٢) "For Ezra Pound : il miglior fabbro"

"أدونيس ، آتس ، أوزيريس "بنوع خاص . ويدرك كل من هو ملم بهذه المؤلفات أن فى القصيدة إشارات لحفلات الزرع »[١] .

ولقد قامت مس وستون فى كتابها بتتبع المعتقدات الدينية الأولى ووصلت إلى منابعها وأصولها كما تتبعت أيضاً حفلات الزرع وجنى الكروم ، وهى تكون فى مجموعها ما وصل إلينا من ثقافات عن تلك العهود السحيقة . وقد قدمت لنا ذلك كله فى أسلوب شيق جميل متخذة المنهاج الأسطورى أساساً لدراستها . وأهم هذه الأساطير هى تلك الأسطورة الخاصة بالملك الصياد[٢] ، ذلك أن أرض هذا الملك قد حلت عليها لعنة السماء كما حلت على سكانها أيضاً وذلك لشرورهم وآثامهم ومعاصيهم ، والزرع أيضاً قد أصابه الجفاف . والحيوانات

---

(١) "Not only the title, but the plan and a good deal of the incidental symbolism of the poem were suggested by Miss Jessie L. Weston's book on the Grail legend : 'From Ritual to Romance' (Cambridge). Indeed, so deeply am I indebted, Miss Weston's book will elucidate the difficulties of the poem much better than my notes can do; and I recommend it (apart from the great interest of the book itself? to any who think such elucidation of the poem worth the trouble. To another work of anthropology I am indebted in general, one which has influenced our generation profoundly; I mean 'The Golden Bough'; I have used especially the two volumes 'Adonis, Attis, Osiris.' Anyone who is acquainted with these two works will immediately recognise in the poem certain references to vegetation ceremonies."

(٢) "The Fisher King"

يقصد بهذا الاسم أيضاً طائر أبو نقار ، واسمه اللاتينى "Alcedo ispida" أو "Alcedo benegalensis" كما ورد فى قاموس العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف .

وهذه التسمية مرادفة أيضاً لكلمة "Kingfisher" ، وقد ورد التعريف الآتى لها فى دائرة المعارف البريطانية :

"Alcedo ispida" "Alcedo benegalensis" "Kingfisher"

"The common kingfisher, 'Alcedo ispida', is a beautiful European bird, extending also to northern Africa and southwest Asia .. It plunges into the water for its food, which consists of small fish, crustacea and aquatic insects."

Encyclopaedia Britannica, Published by William Benton, Vol. 13, Edition 1962, p. 995.

وهذا الطائر وهو أبو نقار يطلق عليه أيضاً اسم « الخطيس » ذلك أنه يغطس فى الماء لينقض على الأسماك الصغيرة بمنقاره الطويل ويلتهمها .

لا تتوالد ولا تتكاثر . ومالك هذه الأرض وهو الملك الصياد قد أقعده المرض المزمن . وهكذا أصيب كل شيء على هذه الأرض بشلل بغيض . إلا أن هذه اللعنة ، كما ورد فى الأسطورة ، قد تزول إذا ما قام فارس شجاع برحلة طويلة عبر هذه الأرض المجدبة حتى يصل إلى قلعة الملك وهناك تتاح له الفرصة لإلقاء بعض الأسئلة عما يدور بداخل هذه القلعة من فعال رمزية ، فإن وجهها الوجهة المرضية وفهمها فهماً صحيحاً ، تزول اللعنة عن هذه الأرض . وإلا استمرت فى قحطها وجدبها .

أما فيما يتعلق بكتاب « الغصن الذهبي » الذى كتبه السير جيمس فريزر ففيه يتعرض الكاتب لآلهة القدماء كالإله تموز عند أهل بابل . والإله أدونيس عند الفينيقيين والإغريق . والإله أوزيريس عند المصريين القدماء . وكانت هذه الآلهة جميعاً رمزاً لقوى الطبيعة ، فهى التى تتحكم فيها وتخضعها لسلطانها ، كما أنها هى التى تهب الحياة للزرع ، وبواسطتها تتعاقب الفصول فى دورتها المعهودة فتنمو البذور وتترعرع الأثمار . ويقول السير جيمس فريزر فى هذا الصدد :

« إن كهنة مصر قد دأبوا على دفن تماثيل مصغرة للإله أوزيريس مصنوعة من الطمى وحبات القمح . وفى آخر العام أو بعد فترة قصيرة كانوا يجدون بعد استخراجها من باطن الأرض أن القمح قد صار نبتاً وبرز من جسم الإله . وكان القوم يرحبون بهذا النبت على أنه فأل طيب أو بالأحرى على أنه السبب فى نمو الزرع »[1] .

---

(١) "The priests (of Egypt) used to bury effigies of Osiris made of earth and corn. When these effigies were taken up again at the end of the year or of a short interval, the corn would be found to have sprouted from the body of Osiris, and this sprouting of the grain would be hailed as an omen, or rather as the cause, of the growth of the crops."

Sir James Frazer, *The Golden Bough*, Part IV, Vol. II, London, 1936, p. 90.

وبهذه الطريقة يُدفن أوزيريس إله الخصب والنماء داخل باطن الأرض، ويترك ميتاً هناك ، لكنه يحيا بعد فترة وجيزة بعد أن يصير نبتاً فينمو ويترعرع . فهو يموت لكي يحيا ، وفي حياته خضرة نضرة ، وثمار غضة ، وخير للبشرية . فهو إذن واهب الحياة ومجددها . وكانت عبادته تتصل بإقامة الحفلات الطقسية، وفيها يقوم الشبان ببعض الحركات الشاقة الرمزية ، وهذه الحركات تمثل دورة الحياة والموت ثم البعث من جديد . وغالباً ما كانت فكرة التطهير تصاحب هذه الفعال الشاقة ، إذ بعد الانتهاء من هذه الحفلات يخرج الشبان « مطهرين » ومستعدين أيضاً لملاقاة حياة جديدة عمادها الفهم الصحيح والإقدام في شجاعة على الأعمال البطولية .

وفكرة الموت هذه تختلف في مضمونها عن الفكرة التي أوردها لنا إليوت في الاقتباس الذي ظهر في صدر القصيدة وهو مقتطف من أسطورة « ساتيريكون »[1] للشاعر اللاتيني بيترونيوس[2] ويقول فيها تريمالكيو[3] :

« لقد رأيت بمقلتي عيناي سيبل وهي معلقة في قفص صغير ؛

ولما وجه إليها بعض الصبية المارين هذا السؤال :

ماذا تريدين يا سيبل ؟ أجابتهم بأنها تريد الموت »[4] .

وسيبل هذه شخصية أسطورية وقع في حبها أبوللون[5] إله الموسيقى والتنبؤ عند الإغريق والرومان ، فمنحها القدرة على معرفة المستقبل وحياة مديدة طويلة

---

(١) Satyricon.
(٢) Petronius.
(٣) Trimalchio.
(٤) "Nam Sibyllam quidem Cumis ego ipse oculis meis vidi in ampulla pendere, et cum illi pueri dicerent : Σίβυλλο τί θέλεις, respondebat illa : αποθανειν θελω·
Ibid., "The Waste Land", p. 59.
(٥) Apollo.

تعادل ذرات الرمال التى كانت تحملها فى قبضة يدها ، لكنها نسيت أن تطلب منه القدرة على تجدد الحيوية فى داخلها ، فذبلت تدريجاً ووهنت صحتها إلى حد أنها تمنت لنفسها الموت .

إن سكان « الأرض الخراب » يتمنون لأنفسهم أيضاً الموت وبخاصة بعد أن ذبل الزرع ولم تعد للحيوانات أية قدرة على الإخصاب ، فعم القحط ، واشتدت التحاريق . و « الأرض الخراب » فى نظر إليوت ما هى إلا أوربا الحديثة وسكانها هم الذين يكونون المجتمع الأوربى بعد الحرب العالمية الأولى . وقد شهدت تلك السنوات اضمحلالاً فى الأخلاق ، وبعداً عن مقومات الحياة ، وجهلاً بعناصرها الأولية ، وإيماناً بقوة المادة ، وزعزعة فى القيم الروحية . ولهذا كان وما زال لهذه القصيدة صدى قوى فى نفوس المفكرين .

وهى مقسمة إلى خمسة أقسام كل قسم منها يمثل حركة موسيقية فى هذه السيمفونية الكبرى التى تشمل الخليقة بأسرها والبشرية جمعاء . ولعل هذا المحيط الرحب قد أعطى للشاعر فرصة التنقل بين الأجيال والعصور المختلفة والإشارة إلى اتجاهات فكرية عديدة . ولهذا يمكننا فهم هذه القصيدة لا على مستوى واحد كما هو جار فى غالبية القصائد العادية ، رومانسية كانت أم كلاسيكية ، بل على مستويات شتى ، فهى متعددة الموضوعات والمضامين ، تتنقل بك بين ألوان عديدة من الحب الجسدى والعذرى ، وبين المادية والروحية ، والضعة والرفعة ، وتطرف بك فى مجاهل تصوفية ومعالم ميتافيزيقية .

إن القسم الأول منها أطلق عليه إليوت اسم « دفن الموتى »[1] وفيه نجد منذ بادئ ذى بدء انقلاب سبل الحياة رأساً على عقب فى هذه البرية التعسة :

« إن إبريل أشد الشهور قسوة ،
فيه تخرج زهور الليلك من الأرض الميتة ،

(١) "The Burial of the Dead"

وتختلط فيه الرغبة بالذاكرة ،
وفيه تنتفض الجذور الخاملة بمطر الربيع .
لقد شملنا الدفء أثناء الشتاء ،
وغطيت الأرض بالجليد فى غفلة منا ،
وتغذت الحياة الواهية على الدرنات الجافة .
أما الصيف فقد أدهشنا حينما تساقط الرذاذ
على شتا رنبيرجرسى ؛ ووقفنا عند الرواق
ثم خرجنا إلى ضوء الشمس حتى وصلنا إلى المتنزه ،
وشربنا القهوة ، ثم تحادثنا لمدة ساعة .
فأنا لست روسية إذ أننى ألمانية الأصل من ليثوانيا .
وفى سن الطفولة أقمت فى منزل بن عمى الدوق ،
وأخذنى معه على الزّحافة
وكنت خائفة للغاية . ثم نادانى قائلاً : مارى ،
مارى ، أمسكى جيداً . وانحدرنا جميعاً .
ولعلك تشعر بالانطلاق عبر الجبال .
إننى أقرأ معظم الليل ، وأذهب إلى الجنوب فى الشتاء »[١] .

---

(١)

"April is the cruellest month, breeding
Lilacs out of the dead land, mixing
Memory and desire, stirring
Dull roots with spring rain.
Winter kept us warm, covering
Earth in forgetful snow, feeding
A little life with dried tubers.
Summer surprised us, coming over the Starnbergersee
With a shower of rain; we stopped in the colonnade,
And went on in sunlight, into the Hofgarten,
And drank coffee, and talked for an hour.
Bin gar keine Russin, stamm' aus Litauen, echt deutsch.
And when we were children, staying at the arch-duke's,

إن شهر إبريل الذى فيه تستيقظ الطبيعة من غفوة الشتاء هو أكثر الشهور قسوة بالنسبة لسكان الأرض الخراب . ولكن ما السبب فى ذلك مع أنه شهر النمو والخضرة والازدهار ؟ إن فى تفتح الطبيعة أثناء الربيع إثبات واضح لحقيقة الحياة ودورة الفصول ، وهذه الحقيقة مصدر إيلام شديد لأهل هذه الأرض الجرداء ، فهم يخشونها ويخافونها ، ويؤثرون إخفاءها ونسيانها ، ولهذا يعودون بذكرياتهم إلى الوراء ، إلى أيام الطفولة البريئة . فها هو تايريزياس[1] الذى يقوم بسرد الأحداث المتضمنة فى القصيدة والتعليق عليها ، يعود بمخيلته إلى الماضى حينما رحل إلى بحيرة (شتارنبيرجرسى) بالقرب من مدينة ميونيخ ، وهنالك قضى وقتاً طيباً . وإنه ليذكر تماماً ذلك الحديث الذى سمعه من فتاة صغيرة ، وكان حينذاك فى متنزه عام ، إذ أخذت تسرد وقائع نزهة خلوية لها مع أحد أقاربها ، وكانت فى أشد حالات الذعر حينما همت بالانحدار على الجليد . ولكنها شعرت أخيراً بالحرية والانطلاق على سفوح الجبال .

وبعد هذه الذكريات التى امتدت إلى سنوات الطفولة ، يعود تايريزياس إلى التفكير فى أمر الأرض الخراب ، فيقول :

« ما هذه الجذور المتشابكة ، وأية أغصان تنمو
من هذه الأنقاض المتحجرة ؟ يابن الإنسان ،
إنك لا تقدر على الكلام أو الحدس ، لأنك لا تعرف سوى
مجموعة مهلهلة من الصور ، حيث تسطع الشمس ،
والشجرة الذابلة لا تلقى ظلاً ، وصوت صرّار الليل لا يجلب الراحة ،

My cousin's, he took me out on a sled,
And I was frightened. He said, Marie,
Marie, hold on tight. And down we went.
In the mountains, there you feel free.
I read, much of the night, and go south in the winter.',
Ibid., p. 61.

(١) Tiresias.

وقد خلت الحجارة الجافة من خرير المياه .
هنالك تجد الظل تحت هذه الصخرة الحمراء ،
(هلم بنا تحت ظل هذه الصخرة الحمراء) ،
وسأريك شيئاً يختلف عن ظلك
حينما يلاحقك فى الصباح
أو يهم بلقائك فى المساء ؟
سأريك الخوف مجسماً فى حفنة من الثرى »[١]

فى هذه السطور يشير إليوت إلى سفر حزقيال[٢] الذى تنبأ فيه بسقوط أورشليم وطرد الإسرائيليين إلى بابليون . ومن ثم خربت معابدهم وتحطمت مساكنهم . وهذا هو الحال أيضاً فى أوربا الحديثة التى حطمتها الحروب وأنهكتها المنازعات ، فلم يعد لها من ثراء المعرفة سوى صور مهلهلة متناثرة . لقد خلت اليابسة من الأمطار التى تسقى الزرع وتكسبها النضرة .

ولم يبق للإنسان أى مأوى فى هذه اليابسة الجرداء سوى صخرة حمراء ، وهذه الصخرة قد ذكرت تايريزياس بجبل المطهر[٣] فى « الكوميديا الإلهية » لدانتى . ففى الجزء الثالث من المطهر يحدثنا دانتى عن عبوره لهذا الجبل تحت

---

(١) 'What are the roots that clutch, what branches grow
Out of this stony rubbish ? Son of man,
You cannot say, or guess, for you know only
A heap of broken images, where the sun beats,
And the dead tree gives no shelter, the cricket no relief,
And the dry stone no sound of water. Only
There is shadow under this red rock,
(Come in under the shadow of this red rock),
And I will show you something different from either
Your shadow at morning striding behind you
Or your shadow at evening rising to meet you;
I will show you fear in a handful of dust."
Ibid., pp. 61-62.

(٢) Ezekiel.

(٣) Mount of Purgatory.

قيادة الشاعر اللاتينى فيرجيل ، وقد لاحظ أن فيرجيل لا يلقى ظلاً على الصخرة فى حين أن ظله هو لا يفارقه ، ولهذا أخبره فيرجيل بأنه قد تخلص من الجسد نهائياً .

إن لهفة الإنسان الملحة نحو تحقيق آماله ، نحو الظل الظليل الذى يقيه من وهج الشمس ، ونحو الينابيع المتفجرة من حرية وحياة وحركة ، هى ما يعنيه إليوت من وراء الأبيات السالفة . هذا إلى خوفنا الشديد من الاعتراف بالحقيقة الراهنة وهى أن الموت أو الفناء يتجسم فى حفنة الثرى بعد أن تحللت الأعضاء وعادت إلى طبيعتها الأولى ؛

هذه الرغبة فى تحقيق الآمال هى التى حدت بتيريزياس أن يفكر فى الحب :

« لقد هبت الرياح المنعشة
من أرض الوطن
أىْ حبيبتى الأيرلندية
أين تتمهلين ؟
أنت الذى قدمت لى نبات الخزام فى العام الماضى :
وأطلقوا علىّ حينذاك أننى فتاة الخزام .
وحينما عدنا متأخرين من حديقة الخزام .
وكان ذراعاها محملتين بالورود ، وشعرها مبلل :
فلم أتكلم ، ولم أستطع أن أحملق فى وجهها :
فلم أكن حيّاً ولا ميتاً ، ولم أعرف شيئاً .
وأخذت أحدق النظر فى النورانية الوضاءة : فى السكون المطبق .
والبحر خال ومتسع »[1] .

---

(١) "Frisch weht der Wind
Der Heimat zu
Mein Irisch Kind
Wo weilest du ?
'You gave me hyacinths first a year ago;
'They called me the hyacinth girl.'
— Yet when we came back, late, from the Hyacinth garden,
Your arms full, and your hair wet, I could not
Speak, and my eyes failed, I was neither

إن الأبيات الأربعة الأولى مقتطفة من الفصل الأول لأوبرا « تريستان وإيزولد » لفاجنر[١] وهى تكون الأغنية التى يقوم بغنائها أحد النوتية الصغار على ظهر السفينة التى تحمل إيزولد إلى (كورنوول) . إن هذه الأغنية تمثل الحب فى بساطته وهذا هو الذى حدا بتيريزياس إلى التفكير فى الحديقة والفتاة الصغيرة التى كانت تلهو بين المروج الخضراء والأزاهير الفيحاء ، تجمع الورود فى رقة بالغة . وقد بلل الندى شعر رأسها . وأمام هذا المشهد الذى يدل على البراءة والطهر . لم يسع تيريزياس إلا أن يطأطئ رأسه فى خجل واحترام . أما « السكون المطبق » أو « النورانية الوضاءة » فهى الشفافية النفسية التى وصل إليها بعد طول تأمل هذا المنظر الذى أثر فى مشاعره تأثيراً عميقاً . لكن هذا الحب الوضاء الذى يشع طهراً ونقاء لم يدم طويلاً فى ذاكرته ، إذ عاد بمخيلته إلى أوبرا « تريستان وإيزولد » وتذكر أن ميلوت[٢] قد غدر بصديقه تريستان وأصابه بجراح خطيرة لأنه أراد أن ينتزع منه حبه لإيزولد . وبعد تلك الخيانة التى أخذت من نفس تريستان كل مأخذ ، وبعد تلك المعركة الدامية بينه وبين صديقه الغادر ، لم يبق أمام تريستان سوى خادمه الوفى الأمين كيرفينال[٣] الذى حمله على ذراعيه . وفى الطريق المؤدى إلى بريتانى قابلا راعى أغنام فسأله تريستان ما إذا كانت السفينة التى تقل إيزولد بالبحر ؟ فأجابه الراعى بأن « البحر خال ومتسع » وليس هناك أى أثر للسفينة .

هذه هى فكرة الحب عند أهل « الأرض الخراب » ، وهى فكرة مليئة بالغدر والخيانة . وبعد أن كان الحب بريئاً ومجلباً للسعادة والبهجة كما تمثل فى

Living nor dead, and I knew nothing.
Looking into the heart of light, the silence.
Oed' und leer das Meer".
Ibid., p. 62.
(١) Wagner's "Tristan und Isolde".
(٢) Melot.
(٣) Kurvenal.

الفتاة الصغيرة التى تقطف الورد فى الحديقة ، أصبح فى أوبرا فاجنر وبالاً ونقمة على صاحبه ، إذ أنه التحم فى هذه الحالة بعنصر الشر المتأصل فى الإنسان . وهكذا انحرف عن تياره الجميل ، وبعد أن كانت فكرته الأصلية التعاطف بين الجنسين ، تدخلت فى الأمر اتجاهات شتى من أمور الكهانة والشعوذة ، فها هى

« مدام سيزوستريس ، العرافة الشهيرة ،
قد أصيبت ببرد شديد ، ومع ذلك
يقال عنها إنها أكثر الأوربيين حكمة ،
فهى تحمل معها مجموعة رديئة من ورق اللعب . لقد قالت لى :
هذه هى ورقتك عن النوتى الفينيقى الذى مات غريقاً ،
(هذه الآلئ تمثل عينيه . انظر !)
ها هى بيلادونا ، امرأة الأماكن الصخرية ،
وسيدة المواقف .
وها هو الرجل ذو الأشرطة الثلاثة ، وهذه هى العجلة ،
وها هو التاجر بعينه الواحدة ،
وهذه الورقة البيضاء يحملها فوق ظهره
وغير مسموح لى أن أراها . إننى لا أرى
الإنسان المعلق . احذر الموت غرقاً .
إنى لأرى جموعاً غفيرة تسير فى شكل دائرة .
شكراً لك . إن لاقيت عزيزتى مسز أكويتون ،
أخبرها بأننى سأحضر كتاب التنجيم بنفسى :
علينا أن نتخذ جانب الحيطة الشديدة فى هذه الأيام »[1] .

---

(١) "Madame Sosostris, famous clairvoyante,

تقول مس جسى وستون فى كتابها « من الطقس إلى القصة الخيالية » الذى أشرنا إليه سالفاً ، أن القدماء كانوا يستعملون ما يشبه ورق اللعب لا للتنجيم ولكن لمعرفة ارتفاع وانخفاض الفيضانات وبالأخص فى وادى النيل ، إذ أن الفيضان هو أساس الخصوبة وهو الذى يحمل معه الخير للسكان . لكن الحال قد تغير فى هذه الأيام إذ يذهب إليوت إلى القول بأن العرافة التى يظن البعض بأنها حاملة مفاتيح الغيب وأنها أكثر بنى زمنها علماً وحكمة ومعرفة ، تسير فى طرقات المدن الأوربية الحديثة ومعها مجموعة رديئة من ورق اللعب تستعملها فى خداع البسطاء وسلب نقودهم . فلقد استوقفت تايريزياس ذات مرة وأخبرته بأن ورقته قد رسمت عليها صورة نوتى فينيقى مات فى البحر ، وحذرته من الاقتراب من الماء حتى لا يموت غريقاً . أما اللآلئ التى أشارت إليها فى البيت التالى فقد ورد ذكرها فى مسرحية « العاصفة » لشكسبير ، إذ بعد أن تحطمت سفينة « ألونسو » والد فيرديناند قال عنه أريال : « إن عينيه كانتا شبيهتين باللآلئ ». أما الأوراق الأخرى فإحداها لبيلادونا المرأة العاهرة ، والأخرى للرجل ذى الأشرطة

Had a bad cold, nevertheless
Is known to be the wisest woman in Europe,
With a wicked pack of cards. Here, said she,
Is your card, the drowned Phoenician Sailor,
(Those are pearls that were his eyes. Look !)
Here is Belladonna, the Lady of the Rocks,
The lady of situations.
Here is the man with three staves, and here the Wheel,
And here is the one-eyed merchant, and this card
Which is blank, is something he carries on his back,
Which I am forbidden to see. I do not find
The Hanged Man. Fear death by water.
I see crowds of people, walking round in a ring.
Thank you. If you see dear Mrs. Equitone,
Tell her I bring the horoscope myself :
One must be so careful these days".
Ibid., pp. 62-63.

الثلاثة على إحدى وجنتيه ، وورقة غيرها رسمت عليها عجلة وهى عجلة الحظ [١] الدائبة الدوران ، ترفع الناس فتسعدهم وتخفضهم فتجلب لهم التعاسة . أما التاجر فله عين واحدة ذلك أنه ينظر إلى الأمور بنظرة مادية واحدة وهى الكسب والغنم التجارى بغض النظر عن أى شىء آخر فى الحياة ، فهذا هو هدفه الوحيد الذى لا يحيد عنه . أما الورقة البيضاء للإنسان المعلق فهى للمسيح المصارب على خشبة الصليب ، وعدم وجود هذه الورقة دليل قاطع على غياب المسيح من العالم الأوربى الحديث ، إذ ليس له مكان فى نفوس تقدس المادة وتعبد الرذيلة . أما الجموع الغفيرة التى تشير إليها مدام سيزوستريس فيما بعد فهم سكان « الأرض الخراب » أو بالأحرى هم الذين يكونون المجتمع الأوربى المعاصر حيث

« المدن الزائفة ،
والجموع المتزاحمة تعبر قنطرة لندن
فى فجر يوم من أيام الشتاء وكان الضباب داكناً .
إننى ما كنت أخال الموت قد طوى مثل هذا العدد الضخم .
وتعالت الزفرات القصيرة المتلاحقة ،
وثبّت كل واحد من القوم نظره أمام قدميه .
وسار الجميع إلى الربوة العالية ثم انحدروا إلى شارع الملك وليم ،
حيث كنيسة القديسة مارى وولنوث وساعتها
التى كانت تدق الساعة التاسعة بصوت حزين .
وهنالك رأيت شخصاً أعرفه فاستوقفته وناديته قائلاً :

ستيتسون !

ألست أنت الذى كنت معى فى السفن فى ميلاى !

---

(١) The Wheel of Fortune.

أفهل بدأ ينبت ذلك الجسم الذى زرعته فى حديقتك
فى العام الماضى ؟ ترى هل سيورق هذا العام ؟
أم أن التربة قد تأثرت بهذا البرد المفاجئ ؟
أوه ، لعلك تبعد هذا الكلب عنا . إنه صديق أمين للناس .
وإلا لاستخرجه ثانية بأظافره من باطن الأرض !
أيها القارئ المرائى ! إنك تشبهنى فى كل شىء . فأنت أخى !(١) »

لقد كانت المدينة فى الماضى رمزاً للأمومة . لكنها الآن بكل بريقها الخارجى أصبحت زائفة . فهذه الجموع المحتشدة التى تعبر طرقاتها غير طبيعية . فلقد أودت المدنية الحديثة بكل عناصر الترابط التى كانت تفخر بها فى الماضى من محبة وإخاء وتآلف وتآزر . وهذه الجموع تشبه إلى حد كبير ذلك الحشد من الأرواح التى شاهدها دانتى كما يحدثنا فى « الكوميديا الإلهية » . ففى الفصل الثالث من « الجحيم » يقول : « إننى ما كنت أخال الموت قد طوى مثل هذا العدد الضخم » . وفى الفصل الرابع يسمع العويل والزفرات المتلاحقة

---

(١)

"Unreal City,
Under the brown fog of a winter dawn,
A crowd flowed over London Bridge, so many,
I had not thought death had undone so many,
Sighs, short and infrequent, were exhaled,
And each man fixed his eyes before his feet,
Flowed up the hill and down King William Street,
To where Saint Mary Woolnoth kept the hours
With a dead sound on the final stroke of nine.
There I saw one I knew, and stopped him, crying: 'Stetson !
'You who were with me in the ships at Mylae !
'That corpse you planted last year in your garden,
'Has it begun to sprout ? Will it bloom this year ?
'Or has the sudden frost disturbed its bed ?
'Oh keep the Dog far hence, that's friend to men,
'Or with his nails he'll dig it up again !
'You ! hypocrite lecteur ! — mon semblable, — mon frère !"
Ibid., p. 63.

بلذين يتعذبون . إن فى تحديق سكان المدن الحديثة أنظارهم فى المرئيات القريبة جداً منهم كناية عن قصر نظرهم وضيق أفقهم العقلى ، فنظرتهم إلى الأمور والمشاكل نظرة ضيقة مليئة بالأنانية وحب الذات . ولا يهمهم من أمر الدين شىء إذ أن دقات الساعة التاسعة فى ذكرى صلب المسيح يوم الجمعة الحزينة لا تحمل لهم أى معنى .

وبينما تايريزياس غارق فى هذه الذكريات إذ تقابل مع شخص يعرفه اسمه ستيتسون ، ومن الغريب أنه اشترك معه فى موقعة ميلاى منذ قرون مضت ، فكيف ذلك ؟ إن إليوت يريد بهذا المنهاج أن يبين لنا أن الحروب فى أهدافها ومراميها واحدة على مر الزمن ، واختلاف الحرب قديماً عنها حديثاً هو اختلاف فى أسلوب الهلاك فقط . وعلى أية حال ففى هذه الموقعة انهزم أهل قرطاجنة أمام الرومان ، وكان سبب الحرب بينهما هو التنافس التجارى . أما النبت الذى سأله تايريزياس عنه فهو الذى يعود بنا إلى أسطورة أوزيريس وخروج نبات القمح من الحبات التى تمثل جسد الإله ، ولكن لماذا نبعد الكلب مع أنه صديق وفى للإنسان ؟ إنه بعد مقتل أوزيريس قامت زوجته إيزيس بجمع أشلائه وساعدتها الكلاب فى ذلك لأمانتها وإخلاصها ، ولكن هذه الصفات لا وجود لها فى « الأرض الخراب » ، ولهذا فسكانها يؤثرون إبعاد الكلب عنهم حتى لا يستخرج الإله أوزيريس المدفون فى باطن الأرض ويضطرهم إلى مواجهة حقيقة الموت والحياة وهم يريدون الابتعاد عنها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . هذا هو النفاق بأجلى معانيه ، وهذا هو منطق النعامة الذى يسير بمقتضاه أهل العصر الحاضر . إن هذه الفكرة الأخيرة المتضمنة فى البيت الأخير قد اقتبسها إليوت من قصيدة « إلى القارئ » للشاعر الفرنسى بودلير »[1] .

* * *

(١) Baudelaire's "Au Lecteur"

فى الجزء الثانى من القصيدة ينتقل إليوت للحديث عن العلاقات الجنسية بين الناس ثم العلاقات الزوجية وما يصيبها من انتعاش وعطب أو جذب وتنافر وأسباب ذلك من مؤثرات داخلية فى الأسرة نفسها أو خارجية فى المجتمع الكبير. وقد أطلق إليوت على هذا الجزء اسم لعبة الشطرنج[١] وهذه التسمية مستمدة من مسرحية « النساء يحذرن النساء » لتوماس ميديلتون[٢] وفيها يذكر أن دوق فلورنسا قد تمكن من الاعتداء على بيانكا[٣] أثناء انشغال أهل بيتها فى لعب الشطرنج.

وعلى ذكر هذه العلاقة الجنسية يتوارد إلى ذهن تايريزياس علاقات أخرى لمستويات اجتماعية مختلفة مثل ديدو[٤] وهى ملكة قرطاجنة الأسطورية التى ورد ذكرها فى قصيدة أينياد[٥] لفيرجيل ، وقد وقعت فى غرام أينياس[٦] ثم انتحرت بعد أن هجرها . وكذلك أيضاً علاقة كليوباترا بأنطونيو فى مسرحية شكسبير التى أشار إليها إليوت فى مستهل هذا الجزء بقوله :

« إن الكرسى الذى تجلس عليه يشبه العرش اللامع
الذى أضفى بريقاً على الرخام ، حيث المرآة
قد ثبتت على الحائط بواسطة البنود التى تحف بها أغصان الكروم
وبرز من بينها تمثال كوبيد الذهبى
(وتمثال آخر قد أخفى عينيه خلف جناحه)
مما ضاعف منظر النيران المنبعثة من الثريا ذات الأفرع السبع
وهى تعكس ضوءها على المنضدة
وقد التقت بثروة عظيمة من التألق
للحلى الموضوعة داخل علب مغلفة بقماش الأطلس .

---

(١) "A Game of Chess"
(٢) Thomas Middleton's "Women Beware Women"
(٣) Bianca
(٤) Dido
(٥) Æneid
(٦) Æneas

.....

ويعلو الرف العتيق للمدفأة المواجهة للشباك
منظراً ريفيًّا عن تغير فيلوميلا
التى اعتدى عليها الملك
فى وحشية مقيتة ؛ وهنالك ارتفع صوت العندليب
ليدوى بصوت غير متهدج فيملأ الصحراء برمتها .
وما زال العالم وراء معاصيه . وما زال دوى الصوت يتردد
فى الآذان الكريهة .
وغير ذلك من بقايا الزمن الذابلة
كانت معروضة على الحائط ؛ من أشكال تحملق
وأخرى بارزة إلى الأمام أو مستندة على حوائط الحجرة بسكونها المطبق»[1]

وينطبق هذا الوصف على كليوباترا وديدو وغيرهما من النساء اللواتى استسلمن لسلطان الحب فتربع على عرش قلوبهن . فكان من الصعب انتزاعه ؛ وضحين

---

(١) "The Chair she sat in, like a burnished throne
Glowed on the marble, where the glass
Held up by standards wrought with fruited vines
From which a golden Cupidon peeped out
(Another hid his eyes behind his wing)
Doubled the flames of sevenbranched candelabra
Reflecting light upon the table as
The glitter of her jewels rose to meet it,
From satin cases poured in rich profusion.
.....
Above the antique mantel was displayed
As though a window gave upon the sylvan scene
The change of Philomel, by the barbarous king
So rudely forced; yet there the nightingale
Filled all the desert with inviolable voice
And still she cried, and still the world pursues,
'Jug Jug' to dirty ears.
And other withered stumps of time
Were told upon the walls; staring forms
Leaned out, leaning, hushing the room enclosed."
Ibid., p. 64.

فى سبيله بكل مرتخص وغال . فهما يشبهان بيانكا فى مسرحية « النساء يحذرن النساء» لتوماس ميديلتون التى أشرنا إليها سالفاً ، ويشبهان أيضاً أميرة أثينا الأسطورية التى أشار إليها إليوت فى الأبيات السالفة وهى فيلوميلا التى تعدى عليها زوج أختها بروسنا[١] الذى يدعى تريوس[٢] . وما كان من هذا الوحش الغادر إلا أن قطع لسان فيلوميلا حتى لا تخبر أختها بفعلته ، ولكن أختها بروسنا علمت بكل ما حدث فقطعت ابنها إرباً إرباً وقدمته لزوجها تريوس على مائدة الطعام . إن بشاعة هذه الأسطورة تعبر لنا عن الوحشية الغاشمة للإنسان، وترينا كيف أن العلاقات الجنسية بين الناس قد تهبط بهم إلى هذا المستوى الحيوانى .

ومن ناحية أخرى نجد أن العلاقات الزوجية فى هذه « الأرض الخراب » قد وهنت واضمحلت وتأثرت تأثراً بالغاً بالآلية التى نعيش فى وسطها والمادية التى نسعى وراءها ، فانعكس ذلك على الكثير من تصرفات الناس وبالأخص على العلاقات العاطفية بين الأزواج ، كما نجد فى الحوار التالى :

« إن وقع الأقدام يهرول على درج السلم .
وانتشر شعر رأسها فى غير انتظام
تحت وهج المدفأة وأسفل الفرشاة
وهمت بالحديث لكنها عادت إلى السكون الموحش .
« إن أعصابى متوترة هذا المساء . نعم فى غاية التوتر . أقض
هذه الأمسية معى .
« كلمنى . لم لا تتكلم أبداً . تكلم .
« فيما تفكر ؟ وما عسى أن تفكر فيه ؟ وماذا ؟
« إننى لم أعرف قط فيم تفكر . وتفكر ؟
أظن أننا فى ممر ملىء بالجرذان

---

(١) Procne
(٢) Tereus

حيث فقد المونى عظامهم .

« ما هذا الصوت ؟

إنه صوت الرياح تحت الباب .

وما هذا الصوت الآن ؟ وبماذا تعبث الرياح ؟ »

لاشيء ثم لا شيء .

« ألا تعرف شيئاً ؟ ألا ترى شيئاً ؟

ألا تذكر شيئاً ؟ »

إننى أذكر

أن عينيه كانتا شبيهتين باللآلىء .

« أما زلت على قيد الحياة أم عاجلتك المنية ؟ أفهل أصبح عقلك خاوياً ؟ »

ولكن

أوه أوه أوه أوه ذلك الاحتفال بيوم شكسبير —

إنه لمنسق

وفيه فطنة

« وماذا سأعمل الآن ؟ ماذا أنا فاعلة ؟

« سأهرع خارج المنزل لأسير فى الطرقات بحالتى هذه

« وقد أسدلت شعرى كما هو . ثم ماذا نعمل غداً ؟

« وماذا ستعمله إلى الأبد ؟ »

الحمام الساخن فى العاشرة صباحاً .

والسيارة المغلقة فى الرابعة بعد الظهر إن كان الجو مطيراً .

وسنلعب الشطرنج ،

ثم نحاول أن نغمض جفون عيوننا التى أعياها السهر

وننتظر قرع الباب »[١] .

هذه هى الحياة الآلية الميكانيكية التى تصنع من الآدميين آلات متحركة أو تخلق منهم قطعاً شطرنجية تتحرك على رقعة « الأرض الخراب » . وهى تنذر فى كل تحركاتها بإهدار العاطفة وانعدام المحبة الحقيقية الأصيلة التى كانت تشد أزر القدامى فى السراء والضراء . وأمام تقدم المدنية الحديثة توترت الأعصاب وعاش القوم فى عزلة عن المعنى الحقيقى للحياة ، فحياتهم جوفاء ،

(١)

'Footsteps shuffled on the stair.
Under the firelight, under the brush, her hair
Spread out in fiery points
Glowed into words, then would be savagely still.
'My nerves are bad to-night. Yes, bad. Stay with me.
'Speak to me. Why do you never speak. Speak.
'What are you thinking of ? What thinking ? What ?
'I never know what you are thinking. Think.'
I think we are in rats' alley
Where the dead men lost their bones.
'What is that noise ?'
The wind under the door.
'What is that noise now ? What is the wind doing ?'
Nothing again nothing.
'Do
'You know nothing ? Do you see nothing ? Do you remember
'Nothing ?'
I remember
Those are pearls that were his eyes.
'Are you alive, or not ? Is there nothing in your head ?'
But .
O O O O that Shakespeherian Rag —
It's so elegant
So intelligent
'What shall I do now ? What shall I do ?'
'I shall rush out as I am, and walk the street
'With my hair down, so. What shall we do tomorrow ?
'What shall we ever do ?'
The hot water at ten.
And if it rains, a closed car at four
And we shall play a game of chess,
Pressing lidless eyes and waiting for a knock upon the door."
Ibid., pp. 65-66.

ولهذا يكرر إليوت إشارته إلى موجة اللاشيئية التى نحيا فى وسطها بالإضافة إلى ممر الجرذان وهو الذى يرمز إلى محتويات « الأرض الخراب » حيث نجد أن حياة أهلها تتسم بطابع الموت . وفى هذا الفراغ المخيم على كل الأرجاء لا نسمع سوى عويل الرياح وهى تداعب أسفل الباب ، ثم تدور بخلدنا ذكريات عن الاحتفال بيوم شكسبير الذى تحول إلى جملة محاولات فى حسن التنسيق والنظام ولا شيء أكثر من ذلك فى هذه الذكرى العظيمة لشاعر وكاتب مسرحى فذ . نعم ، إن هى إلا حياة خاوية تود هذه السيدة أن تتخلص منها ولكن دون جدوى ، فهى تريد أن تخرج إلى الشارع كما هى بشعرها غير الممشط وملبسها المنزلى ، ولكن ماذا تفعل بعد أن تقدم على كل ذلك ؟ ستعود حتما إلى نفس الفراغ القاتل حيث الحمام الساخن فى العاشرة صباحاً والسيارة المغلقة فى الرابعة بعد الظهر ثم الجفون المتعبة المنهكة القوى التى لا تقوى على الحركة فى المساء .

هذه هى الدائرة المغلقة لحياة المدينة ، حياة كلها فراغ وملل ، وسقم وضيق، كما نتبين ذلك فى الأبيات السالفة . هذا إلى محاولة إليوت الجادة فى أن يعطينا صورة أقرب ما تكون إلى التكامل عن هذا اللون من الحياة فينتقل بنا إلى حانة فى قلب مدينة لندن لنستمع إلى الحوار التالى عن ليل[1] وزوجها ألبرت الذى كان جنديًا ، فتبدأ صديقة ليل الكلام مع إحدى رفيقاتها بقولها :

« حينما أتى زوج ليل فترة الجندية ، قلت لها
بنفسى ، فى وضوح تام :
ـ أرجو أن تسرعوا فقد حان الوقت[2] ـ
ألا تحسنى من هندامك ومظهرك فألبرت فى طريق العودة .
وسيسألك عن النقود التى أعطاها لك

---

(١) Lil

(٢) يردد هذه العبارة صاحب الحانة .

لتشترى بها مجموعة من الأسنان الصناعية ، إذ كنت حاضرة حينما أعطاك النقود .

لقد خلعت جميع أسنانك ، أليس كذلك ؟ لتشترى طقماً جميلا ، وأقسم ألبرت أنه لا يستطيع أن ينظر إليك حينذاك .

وأنا أيضاً كذلك . وأرجو أن تفكرى فى ألبرت المسكين ،

لقد قضى فى الجيش أربع سنوات ، ويريد بعد ذلك أن يسرى عن نفسه ، وقلت لها : إن لم تمنحيه البهجة فالكثيرات غيرك على أهبة الاستعداد .

أوه ، ثم تساءلت : أفهل هذا صحيح ؟ فقلت لها : شىء من هذا القبيل .

واستطردت قائلة : حينئذ سأعرف جيداً من التى تستحق الشكر منى ، ثم تجهمت فى وجهى .

— أرجو أن تسرعوا فقد حان الوقت —

وقلت لها : إن لم ترقك هذه الحياة عليك أن تتحملى أعباءها .

وإذا عجزت عن ذلك ففرصة الاختبار متسعة أمام الكثيرين .

وإن هجرك ألبرت فالذنب ذنبك لأننى أفصحت لك عن كل شىء .

ثم قلت لها : عليك أن تخجلى من نفسك فنظرك كالعجوز المسنة (وهى لم تتجاوز الواحدة والثلاثين) .

فقالت وهى غاضبة : هذا أمر خارج عن إرادتى ،

إن هذا مرده إلى الحبوب التى تناولتها لإجهاضى .

(إن لها خمسة أطفال وكادت أن تموت عند ولادة جورج الصغير) .

إن الصيدلى قد أخبرنى أن كل شىء على ما يرام ، لكننى لم أسترد صحتى كما كانت أولاً .

فقلت لها : يا لك من حمقاء .

حسناً ، إن لم يتركك ألبرت وحيدة ، فالنتيجة كما لمست .

ولم تقدمين على الزواج إن لم يكن لديك رغبة فى إنجاب الأطفال ؟

ـ أرجو أن تسرعوا فقد حان الوقت ـ

حسناً ، فقد عاد ألبرت إلى منزله يوم الأحد الماضى ، وتناول مع أسرته لحم الخنزير ،

ودعونى للعشاء معهم كيما أستمتع بهذه الأكلة وهى ساخنة

ـ أرجو أن تسرعوا فقد حان الوقت ـ

ـ أرجو أن تسرعوا فقد حان الوقت ـ

طاب مساؤك يا بل أنت ولو وماى . طاب مساؤكن جميعاً .

تاتا . أنعمن مساء . أنعمن مساء .

طاب مساؤكن أيتها النساء ، طاب مساؤكن أيتها النساء الجميلات ، أنعمن مساء ، أنعمن مساء »[1] .

---

(١) "When Lil's husband got demobbed, I said —
I didn't mince my words, I said to her myself,
HURRY UP PLEASE ITS TIME
Now Albert's coming back, make yourself a bit smart.
He'll want to know what you done with that money he gave you
To get yourself some teeth. He did, I was there.
You have them all out, Lil, and get a nice set,
He said, I swear, I can't bear to look at you.
And no more can't I, I said, and think of poor Albert,
He's been in the army four years, he wants a good time,
And if you don't give it him, there's others will, I said.
Oh is there, she said. Something o' that, I said.
Then I'll know who to thank, she said, and give me a straight look.
HURRY UP PLEASE ITS TIME
If you don't like it you can get on with it, I said.
Others can pick and choose if you can't.
But if Albert makes off, it won't be for lack of telling.
You ought to be ashamed, I said, to look so antique.
(And her only thirty-one).
I can't help it, she said, pulling a long face,
It's them pills I took, to bring it off, she said,
(She's had five already, and nearly died of young George.)
The chemist said it would be all right, but I've never been the same.
You are a proper fool, I said.
Well, if Albert won't leave you alone, there it is, I said,

ويتضح لنا أن هذا الحوار يدور فى إحدى حانات لندن بين اثنتين من السيدات إحداهما صديقة ليل زوجة ألبرت . وهى تخبر صديقتها أثناء احتساء الخمر بمادار بينها وبين ليل من قبل وكيف أنها نصحتها بحسن لقاء زوجها بعد أن قضى فى الجيش أربع سنوات ، لكن عملية الإجهاض التى أقدمت عليها قد تركت آثاراً وخيمة على صحتها . هذا إلى فقدان أسنانها الطبيعية فأصبحت فى حكم العجائز بالرغم من أنها لم تتجاوز الواحدة والثلاثين . وفى أثناء هذا الحوار نسمع صوت صاحب الحانة وهو يقول : « أرجو أن تسرعوا فقد حان الوقت » ، فهو يريد أن يغلق بابه إذ قد حان الوقت للعودة إلى المنزل . إن هذا الصوت المنبعث من حنجرة صاحب الحانة فى تذكرته لروادها بأن الوقت قد أزف ، يرمز إلى المشكلة الزمنية فى حياتنا وكيف أن وقتنا يضيع هباء وسدى أمام الكسل وعدم اقتناص الفرص المواتية . أما الإجهاض الذى أقدمت عليه ليل فإنه يشير إلى العقم الذى أصاب كل سكان « الأرض الخراب » بل كل الكائنات الحية من حيوان ونبات . وكم من نفوس بريئة ذهبت فى هذا المعترك ضحية الأنانية والشر وسوء الظن ! ولهذا فالأبيات الأخيرة تردد فى انفعال قوى تلك الكلمات التى كانت تنساب من فم أوفيليا فى مسرحية « هاملت » لشكسبير بعد أن أصيبت بالجنون لعدم اكتراث هاملت بها فلم يستجب لحبها له ، إذ كان يظن أنها تتجسس عليه كما يفعل غيرها من أهل البلاط . ولم تمض أوفيليا طويلاً فى هذه المحنة إذ تلقى بنفسها فى اليم فتبتلعها الأمواج المتلاطمة .

What you get married for if you don't want children ?"
HURRY UP PLEASE ITS TIME
Well, that Sunday Albert was home, they had a hot gammon,
And they asked me in to dinner, to get the beauty of it hot —
HURRY UP PLEASE ITS TIME
HURRY UP PLEASE ITS TIME
Goodnight Bill. Goodnight Lou. Goodnight May. Goodnight.
Ta, ta. Goodnight. Goodnight.
Good night, ladies, good night, sweet ladies, good night, good night."
Ibid., pp. 66-67.

وهذا هو لون آخر من ألوان الحب يختلف عن حب كليوباترا وديدو وبيلادونا وبيانكا حيث الرغبة الجامحة فى إرضاء نزوة عارمة ، وفى حالة « ليل » قد تحول الحب إلى فتور وملل ، أما فى حالة أوفيليا فنجدها مساوبة الإرادة كما أنها لم تقدم على فاجعتها الأخيرة إلا بعد أن فقدت ذاكرتها تماماً ، فنحن نعطف عليها ، ونشفق لحالتها ، ونرثى لنهايتها الأليمة .

* * *

وفى الجزء الثالث من القصيدة تتتابع الصور الشعرية وتتزاحم فى تعبيرها عن مشاكلنا الاجتماعية والأخلاقية التى نعيش فى وسطها . ويهدف إليوت من وراء ذلك إلى الوصول إلى منابع الشر المتأصلة فى النفس البشرية . وهو فى تجواله للبحث عن العناصر الأولى للشر يرجع بنا إلى القرون السحيقة حيث المدنيات والفلسفات القديمة ، ويجد فى العظة الشيقة التى ألقاها بوذا[١] أمام تلك الجموع الغفيرة من النساك صدى قوياً لما نحس به الآن ، فيتخذ من منطوق هذه العظة عنواناً لهذا الجزء من القصيدة فيطلق عليه اسم العظة النارية[٢] . فلقد استهل بوذا عظته بقوله :

« إن كل شيء فى الوجود قد التهب بسعير النيران المتأججة ،

وأعنى كل شيء يمس حواس الإنسان أو يتصل بعقله أو فكره » .

ثم سأله بعض النساك قائلين : « بأى نيران قد أصيبت هذه الأشياء » ؟ فأجابهم على الفور قائلاً :

« إننى أعلن لكم أننا نحترق بنيران الشهوة ، ونيران الغضب ، ونيران الجهل ، ونيران الألم وقت الولادة والممات ، ثم نيران البؤس والشقاء والحزن واليأس » .

---

(١) Buddha
(٢) "The Fire Sermon"

إن طريق النجاة من هذه النيران التى تودى بالبشرية إلى التهلكة هو الإحجام عن كل ما يعلق بالحس من شوائب وما يتصل بالنفس من نزوات حتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى حالة سامية من الحرية الإرادية .

وإليوت فى هذا الجزء من قصيدته لا يلقى علينا عظة كما قد يتبادر إلى الأذهان ؛ إنه يعطينا أمثلة عديدة ومترامية الأطراف مشتقة من الماضى والحاضر ، ويستهلها بالإشارة إلى قصيدة أدموند سبنسر عن حفل الزفاف[١] :

« قد اقتلعت الخيمة ، والأوراق الأخيرة المتشابكة
قد تداعت وسقطت على الشاطئ المبلل .
ومرت الرياح فى غير جلبة عبر الأرض ذات اللون البنى .
وحوريات البحر قد هجرن المكان .
ترفق بنا أيها النهر (التيمز) إلى أن أنتهى من أغنيتى .
لقد خلا البحر من الزجاجات الفارغة ، وأغلفة الأطعمة ،
والمناديل الحريرية ، والصناديق المصنوعة من الورق المقوى ، وأعقاب
السجاير وغير ذلك من آثار الصيف وأمسياته .
وحوريات البحر قد هجرن المكان
وأصدقاؤهن الذين ورثوا التلكؤ فى الطرقات من مرشدى المدينة
قد رحلوا ولم يتركوا عناوينهم .
أما أنا فجلست وحيداً أبكى بالقرب من مياه (ليمان) . . . .
ها هى الأجسام البيضاء العارية قد استلقت على الأرض الرطبة
وتناثرت العظام فى الصومعة الجافة .
تحركها أرجل الجرذان مرة كل عام .
ومن وقت لآخر أسمع خلفى

---

(١) Edmund Spenser's "Prothalamion"

صوت البوق والسيارات التى تقل
سوينى فى طريقه إلى مسز بورتر فى الربيع .
لقد ظهر البدر وضاء على محيا مسز بورتر
وابنتها أيضاً
وهما تغسلان أقدامهما فى الصودا
ها هى أصوات الأطفال الذين ينشدون تحت الأشجار المتعانقة !
تويت ، تويت ، تويت .
چوج ، چوج ، چوج .
يا له من اغتصاب غاشم
تريوس »[١] .

---

(١) "The river's tent is broken : the last fingers of leaf
Clutch and sink into the wet bank, The wind
Crosses the brown land, unheard. The nymphs are departed.
Sweet Thames run softly till I end my song.
The river bears no empty bottles, sandwich papers,
Silk handkerchiefs, cardboard boxes, cigarette ends
Or other testimony of summer nights. The nymphs are departed.
And their friends, the loitering heirs of city directors;
Departed, have left no addresses.
By the waters of Leman I sat down and wept ....
White bodies naked on the low damp ground
And bones cast in a little low dry garret,
Rattled by the rat's foot only, year to year.
But at my back from time to time I hear
The sound of horns and motors, which shall bring
Sweeney to Mrs. Porter in the spring.
O the moon shone bright on Mrs. Porter
And on her daughter
They wash their feet in soda water
Et O ces voix d'enfants chantant dans la coupole !
Twit twit twit
Jug jug jug jug jug jug
So rudely forc'd
Tereu."
Ibid., pp. 68-69.

تذكر لنا مس وستون فى كتابها « من الطقس إلى القصة الخيالية » أن بعض الفتيات الجميلات كن يترددن على المعبد القريب من قصر الملك الصياد . وذات مرة تعدى عليهن بعض رجال الحاشية فاغتصبوهن ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا منهن الأوانى الذهبية التى كن يحملنها معهن . ومنذ هذه اللحظة حلت اللعنة على « الأرض الخراب » بكل ما فيها من كائنات .

هذه الأسطورة فى نظر إليوت تشبه إلى حد بعيد ما هو جارى فعلاً على شاطئ التيمز وخاصة أثناء الصيف بأمسياته الصاخبة حيث العلاقات المريبة بين الشبان والفتيات . أين ذلك من أغنية الزفاف لأدموند سبنسر الذى عاش فى القرن السادس عشر (١٥٥٣ — ١٥٩٩) ؟ لقد كان الجميع من عذارى وشبان ينشدون ويتغنون فى محبة وفى صفاء على شاطئ التيمز استعداداً لحفلات الزفاف . أما والأمور قد تبدلت فلا مناص من تعكير المياه ببقايا الأطعمة وأعقاب السجاير وغيرها ، هذا إلى ما يسود الجو من فساد واضمحلال وإهدار للقيم . ولهذا يهرع تايريزياس إلى مياه ليمان وهى التى نطلق عليها الآن بحيرة جنيف . وهذه التسمية فى الأصل تحريف لاسم البحيرة القريبة من حصن بابليون حيث سجن اليهود عقب فرارهم من أورشليم . وهنالك بالقرب من مياه ليمان أو بالأحرى بالقرب من ذلك السجن الذى فرضه تايريزياس على نفسه ، يقضى وقته باكياً بكاء مراً مما آل إليه أمر ذلك المجتمع الحديث الذى نعيش فيه . وما هى إلا لحظات حتى سمع من خلفه قعقعة عظام الموتى حينما تحركها الجرذان ، وهذه كلها ترمز إلى انعدام الحياة بكل مظاهرها فى « الأرض الخراب » . ويتعمد إليوت هنا أن يعقد مقارنة بين هذه المظاهر المسلوبة وبين ما قاله أحد الشعراء الميتافيزيقيين فى القرن السابع عشر وهو أندرو مارفيل فى قصيدته التى أطلق عليها « إلى سيدته الخجولة »[١] أنه كان يسمع دائماً من خلفه عربة الزمن تقترب منه رويداً رويداً . وبدلاً من الأغانى العذبة التى كانت

(١) Andrew Morvell's "To His Coy Mistress"

تتردد على مسمع فيرديناند وهو فى طريقه إلى محبوبته ميراندا نستمع الآن إلى أصوات البوق ووسائل النقل المزعجة التى ينتقل بها سويني إلى عشيقته مسز بورتر .

هذه هى بعض مظاهر المدنية الحديثة من أبواق تنعق ، وعلاقات ملتوية ، ونوايا خبيثة ، وفساد مخيم على كل أرجاء المجتمع ، وشلل قد أصاب كل ركن من أركانه ، وكل دعامة من دعائمه ؛ فعم القحط ، وتناثرت أشلاء الموتى التى تحركها الجرذان يمنة ويسرة بين الفينة والفينة ؛ وبهذا نضب معين الحياة ، فوهنت القوة ، وتضاءلت الهمة . وفى وسط هذا الظلام الدامس نستمع إلى الأطفال ببراءتهم وأناشيدهم الجميلة المشجية التى يشير إليها إليوت فى أبياته الأخيرة . ولكن سرعان ما نعود إلى جو المدينة الحديثة لينقلنا إليوت إلى شطرها التجارى ، إذ يقول :

« المدينة الزائفة
بضبابها القاتم فى ظهر يوم من أيام الشتاء
كان المستر أيوجنيدس التاجر الأزميرى
قد ترك لحيته وملأ جعبته بالكرم المجفف
وتسلم بضاعته بعد إبراز المستندات الخاصة بالتكلفة والتأمين والنولون
ثم طلب منى بلهجة فرنسية ديموطيقية
أن أتناول الغذاء معه فى فندق بشارع المدافع
ونقضى عطلة نهاية الأسبوع سوياً فى المتروبول »[1] .

هذا هو التاجر الذى أشارت إليه مدام سيزوستريس صاحب العين الواحدة

(١)

"Unreal City
Under the brown fog of a winter noon
Mr. Eugenides, the Smyrna merchant
Unshaven, with a pocket full of currants
C.i.f. London : documents at sight,
Asked me in demotic French
To luncheon at the Cannon Street Hotel
Followed by a weekend at the Metropole".
Ibid., p. 69.

التى يركزها على مهمته التجارية من تخليص بضاعته ثم البحث عن أسواق لبيعها . وبحكم مهنته فإنه يتكلم الفرنسية الديموطيقية (بدلاً من اللغة المصرية الديموطيقية القديمة) كناية عن أنه تاجر عالمى يجيد لغات عدة . وعلى أية حال فاللغة الديموطيقية التى يجيدها هذا التاجر هى اللغة العامية الدارجة التى يتحدث بها أفراد الشعب . وهو يتجر فى الزبيب فى لندن . ولقد دعا تايريزياس لتناول طعام الغذاء معه وقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى المتروبول ، والعلاقة بينهما هنا تحتمل الشك الذى أشار إليه بعض النقاد .

وبعد هذا الحديث عن الشطر التجارى من حياة المدينة الصاخبة يعود أليوت إلى الحديث عن الفساد الذى عم الأرجاء فى المدن الصناعية الكبرى ، ويقدم لنا مثالاً حياً فى شيء من الصراحة عن حياة الوحدة التى تحياها سكرتيرة تعمل على الآلة الكاتبة :

« لقد رفعت عيناى وظهرى بعيداً عن الآلة الكاتبة
وهممت بالوقوف وقت الغسق . لكن الآلة الإنسانية تمهلت
كعداد التاكسى الذى يعد وقت الانتظار ،
أما أنا تايريزياس ، مع أننى ضرير أترنح بين لونين من الحياة ،
كرجل مسن له صدر مجعد كصدور النساء ،
أستطيع أن أتصور ساعة الغسق ،
تلك الساعة التى يعود فيها النوتى إلى وطنه الحبيب ،
هكذا عادت السكرتيرة إلى بيتها وقت تناول الشاى ، فأزالت بقايا طعام الإفطار ،
وأشعلت الموقد ، ثم أفرغت بعض الأطعمة المحفوظة .
وانتشرت خارج النافذة
ملبوساتها المغسولة التى لفحتها أشعة الأصيل فجفت ،
وتراكمت على الأريكة (التى تحولها إلى سرير فى المساء)

جواربها وأحذيتها وملابسها الداخلية ومشدها »[١] .

بعد هذا العرض عن الدقائق الصغيرة التى تكون فى مجموعها حياة العزلة والانفراد لهذه الفتاة . يتخذ منها الشاعر ذريعة للتعبير عن الظروف والملابسات التى أحاطت بها والتى أدت إلى انحدارها فى طريق الغواية وقيام علاقة جنسية بينها وبين كاتب فى إحدى المؤسسات الصغيرة للإسكان . وفى كل ذلك يقوم تايريزياس بدور التعليق على كل مشاهداته وتصوراته ، إذ يقول :

« أما أنا تايريزياس ، كرجل مسن صاحب صدر مجعد ،
قد تأملت المشهد ، وتنبأت ببقية الأحداث —
فلقد كنت أتوقع أيضاً قدوم الضيف المنتظر .
وأخيراً وصل الشاب بصحته المعتلة ،
وهو يعمل كاتباً فى دار صغير لتأجير المنازل ، وأخذ يحملق ويتفرس ،
ومع ضعته وخساسته إلا أنه مطمئن غاية الاطمئنان
وهو فى ثقته بنفسه شبيه بالقبعة الحريرية التى تستقر على رأس مليونير برادفورد .
وظن أن الوقت مواتياً .
إذ أن الفتاة قد انتهت من أكلتها . وأحست بالتعب والملل ،

---

(١) "At the violet hour, when the eyes and back
Turn upward from the desk, when the human engine waits
Like a taxi throbbing waiting,
I Tiresias, though blind, throbbing between two lives,
Old man with wrinkled female breasts, can see
At the violet hour, the evening hour that strives
Homeward, and brings the sailor home from sea.
The typist home at teatime, clears her breakfast, lights
Her stove, and lays out food in tins.
Out of the window perilously spread
Her drying combinations touched by the sun's last rays.
On the divan are piled (at night her bed)
Stockings, slippers, camisoles, and stays."
Ibid.

فأخذ يداعبها
دون أن يلاقى منها كلمة تأنيب .
فعزم على مهاجمتها ؛
دون أن تلقى يداه أية مقاومة ؛
فهو ليس بحاجة إلى استجابة لإشباع غروره ؛
فصلته بها قائمة على عدم المبالاة .
(وأنا تايريزياس بدورى قد قاسيت من كل هذه الأمور
ولعبت أدواراً شتى على نفس الأريكة أو السرير ؛
أنا الذى جلست بجوار الجدران فى طيبة
وجلت بين صفوف الموتى) .
أما هو فقد قبلها قبلة الوداع
وأخذ يتلمس طريقه إذ أن السلم كان مظلماً [١] . . . .

(١) "I Tiresias, old man with wrinkled dugs
Perceived the scene, and foretold the rest —
I too awaited the expected guest.
He, the young man carbuncular, arrives,
A small house agent's clerk, with one bold stare,
One of the low on whom assurance sits
As a silk hat on a Bradford millionaire.
The time is now propitious, as he guesses,
The meal is ended, she is bored and tired
Endeavours to engage her in caresses
Which still are unreproved, if undesired.
Flushed and decided, he assaults at once;
Exploring hands encounter no defence;
His vanity requires no response,
And makes a welcome of indifference.
(And I Tiresias have foresuffered all
Enacted on this same divan or bed;
I who have sat by Thebes below the wall
And walked among the lowest of the dead.)
Bestows one final patronising kiss,
And gropes his way, finding the stairs unlit ...."
Ibid., pp. 69-70.

ولعل هذه الأبيات تبين لنا الصورة الشعرية التى ارتسمت فى مخيلة الشاعر لتوضح لنا ما جال بخاطره عن فساد الحياة الحاضرة وعن انحدار العلاقات بين الجنسين إلى هذا الحد المشين . كما أن هذه الأبيات من ناحية أخرى تربط قصيدة « الأرض الخراب » بأسطورة مس جسى وستون التى أشرنا إليها من قبل ، وهو ارتباط وثيق نابع من الصلة القوية بين هذه الأسطورة وقصيدة إليوت لا سيما وأنه اعترف فى مذكراته بدينه الكبير لها . ويتضح لنا من ذلك أن الجنس قد تحول عن هدفه ومرماه الأول وهو إنجاب الذرية إلى أن أصبح أداة للهو وطريقاً للخسة . لقد كان الجنس فى الماضى رمزاً « للحيوية الخلاقة »[1] كما عبر عنها بعض النقاد ، فهو الطريق السليم للتعاطف والسعادة . أما والأمور قد تعقدت بفضل المدنيات الحديثة ، فلا غرو إن اضمحلت هذه القيمة وابتعدت بعداً شاسعاً عن أهدافها السامية الأولى .

وتايريزياس نفسه لم ينج من الانحراف والوقوع فى مثل هذا المعترك الذى خبره ومر بتجاربه ، فعرف الشىء الكثير عن حقيقتى الحياة والموت ، وعن نزوات الإنسان وشهواته وملذاته ، ثم المبررات العديدة التى يخلقها حينما يرتكب خطأ أو يزل بمحض إرادته . ثم يعود ويقول إن صوت الضمير الذى كنا نتطلع إليه فى يقظته قد مات فى أرض المدنية الحديثة الخراب ، ومات معه بالطبع الشعور بالندم أو مجرد الإحساس بالإثم :

« فلقد استدارت الفتاة ونظرت إلى المرآة ،
تكاد ألا تحس بأن حبيبها قد رحل ؛
وراودت ذهنها فكرة غير مكتملة :
« والآن ، وقد أقدمت على هذه الفعلة : إننى فرحة بانتهائها » .
فحينما تنحدر المرأة إلى الغواية
وتسير بمفردها داخل حجرتها بخطى متثاقلة ،

---

(١) Created vitality

تأخذ فى تصفيف شعرها بطريقة آلية ،
وتضع أسطوانة على الحاكى (الجراموفون) »[١] .

إن الأبيات الأخيرة قد اقتطفها إليوت من قصة « قسيس ويكفيلد » للكاتب الإنجليزى أولفر جولد سميث[٢] ، لكن إليوت قد أدخل تغيرات طفيفة على النص الأصلى ، فبينما جولد سميث يجد أن العلاج الوحيد لمثل هذه الحالات هو الموت ، إذ بإليوت لا يقدم لنا حلاً بل يتتبع سلوك هذه الفتاة خطوة بخطوة بعد رحيل حبيبها عنها . ويهمنا فى هذا المضمار إشارته إلى الطريقة الآلية فى سلوك الفتاة ، وهى انعكاس بطبيعة الحال لحياتها الميكانيكية ، فهى تعمل على الآلة الكاتبة ، وحياتها فى حجرتها التى تقطنها امتداد لحياتها العملية طوال النهار ، وكل ما أمكنها القيام به هو الاستماع إلى صوت الموسيقى المنبعث من الأسطوانة حينما أدارت الحاكى . أين أصوات هذه الموسيقى الممتزجة بالإثم من خرير المياه فى الماضى حيث تلاقى الأحباء بالقرب منها :

« لقد تسربت هذه الأصوات الموسيقية عبر الأمواج
ومرت بالاستراند إلى أن وصلت إلى شارع الملكة فيكتوريا .
أوه أيتها المدينة ، إننى أستمع أحياناً
إلى الأصوات العذبة المنبعثة من القيثارة
بالقرب من الحانة العامة فى شارع التيمز السفلى ؛
وقرقعة تلتها جعجعة من الداخل

---

(١) "She turns and looks a moment in the glass,
Hardly aware of her departed lover;
Her brain allows one half-formed thought to pass :
'Well now that's done; and I'm glad it's over.'
When lovely woman stoops to folly and
Paces about her room again, alone,
She smoothes her hair with automatic hand,
And puts a record on the gramophone".
Ibid., p. 70.

(٢) Oliver Goldsmith's "The Vicar of Wakefield."

حيث يقضي صيادو السمك وقت الظهيرة :
هنالك بالقرب من كنيسة الشهيد الأكبر
بجدرانها الزاهية ذات الرنين الأبيض والذهبي [١]» .

إن صوت القيثارة يبعث فى النفس الرضى والراحة وبخاصة إذا امتزج بموسيقى البحر داخل الحانة المطلة على التيمز حيث يقضى الصيادون فترة راحتهم . وبالقرب منهم عند حافة قنطرة لندن توجد كنيسة الشهيد التى يؤمها الصيادون . والأسماك فى نظر إليوت رمز للنفوس الضالة التى تتخبط فى خضم هذه الحياة بأمواجها الزاخرة الآثمة ، ووظيفة دور العبادة هى اقتناص هذه النفوس وانتشالها بعيداً عن أنواء هذا العالم . وهذا الاتجاه الرمزى الذى يفسر لنا اجتماع الكنيسة وصيادى السمك فى النص السالف . قديم قدم التاريخ . فلقد ورد فى بعض المخطوطات الأثرية عن اليوذية أن بوذا كان يطلق عليه أحياناً اسم « صياد السمك » إذ كان يصطاد الأسماك البشرية من « محيط الخطيئة »[٢] ليطرحها خارجاً إلى نور المعرفة الصحيحة . وفى مخطوط آخر محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن نص قديم عن معتقدات أهل بابل وفيه إشارة إلى أن إلههم أوانيس [٣] كان صياداً للأسماك وهو فى نظرهم مصدر الفنون برمتها . وهذا المعنى معروف أيضاً فى المسيحية .

وعلى ذكر الأسماك والبحار يعود أليوت إلى الإشارة إلى حوريات البحر

---

(١) "This music crept by me upon the waters'
And along the Strand, up Queen Victoria Street.
O City city, I can sometimes hear
Beside a public bar in Lower Thames Street,
The pleasant whining of a mandoline
And a clatter and a chatter from within
Where fishermen lounge at noon : where the walls
Of Magnus Martyr hold
Inexplicable splendour of Ionian white and gold."
Ibid., pp. 70-71.

(٢) The ocean of Samsara

(٣) Oannes

اللواتى سبق ذكرهن عند افتتاحية هذا الجزء ، وها هى الأغنية التى يرددنها معاً بعد أن غرر بهن أصدقاؤهن :

« البحر ينضب
زيتاً وقاراً
والسفن تنساب
مع حركة المد ،
الشراع الأحمر
المتسع
يرفرف فى اتجاه الريح ويتمايل على السارى الكبير
السفن تمخر العباب
والكتل الخشبية تنساب
إلى جرينتش
بعد أن مرت بجزيرة الكلاب .
ويلا لا لى
والا لا لى لالا » (١) .

أما الجزء الثانى من الأغنية فهو منصب على الملكة إليزابيث الأولى التى

(١)

"The river sweats
Oil and tar
The barges drift
With the turning tide
Red sails
Wide
To leeward, swing on the heavy spar.
The barges wash
Drifting logs
Down Greenwich reach
Past the Isle of Dogs.
Weialala leia
Wallala Leialala".

Ibid., p. 71.

وقعت فى غرام إيرل أوف ليستر حينما التقيا فى قصر الملكة الذى يقع على الضفة اليمنى لنهر التيمز بالقرب من مستشفى جرينتش :

« إليزابيث وليستر
والمجاديف التى تضرب الماء
ومؤخرة السفينة
التى تشبه المحارة المزركشة
بلونيها الأحمر والذهبى
وحركة المد السريعة
والأمواج التى تتكسر على الشاطئ
والرياح الجنوبية الغربية
دفعتهم عبر الأمواج
بالقرب من الأجراس العالية
التى تدق داخل الأبراج البيضاء .
ويلا لا لى
وإلا لا لى لا لا »[1] .

وبعد هذه الأغنية الجماعية تنفرد كل واحدة من حوريات التيمز الثلاثة

---

(١) "Elizabeth and Leicester
Beating oars
The stern was formed
A gilded shell
Red and gold
The brisk swell
Rippled both shores
Southwest wind
Carried down stream
The peal of bells
White towers
Weialala leia
Wallala leialala."

بالحديث عن نفسها . وهن يشبهن فى هذا المضمار حوريات الرين ، فهن جميعاً وقعن فريسة للخداع والاغتصاب . فجلسن على شاطئ التيمز أو الرين يندبن حظهن العاثر . إذ تقول الأولى :

« إننى أجىء من هايبورى
حيث المركبات الكهربائية والأشجار المتربة ،
لقد فقدت أعز ما لدى فى رشموند وكيو
وفى رشموند ملت على ركبتاى فى تراخ على سطح القارب الضيق »[١] .

إنها ولدت فى هايبورى وغرر بها أحد السوقة فى رشموند بلندن . أما الثانية فتقول :

« إننى أقطن مورجيت . وأطأ قلبى
تحت قدماى . فلقد بكى
بعد الحادث . ووعدنى ببداية طيبة .
لكننى لم أعلق على شىء . فما عساى أن أستنكر ؟ »[٢]

بعد أن وقعت فريسة لنزواتها فإنها الآن تضع قلبها تحت قدميها معترفة بخطئها لكنها لا تثق كثيراً فى وعود الرجال ولهذا فإنها لم تعلق على وعد صاحبها بتغيير سلوكه نحوها . أما الثالثة فإنها تقول :

« على رمال مارجيت
أكاد أربط
لا شىء بلا شىء .

---

(١) "Trams and dusty trees.
Highbury bore me. Richmond and Kew
Undid me. By Richmond I raised my knees
Supine on the floor of a narrow canoe."
Ibid., pp. 71-72.

(٢) "My feet are at Moorgate, and my heart
Under my feet. After the event
He wept. He promised 'a new start.'
I made no comment. What should I resent ?"
Ibid., p. 72.

ها هى أطراف الأظافر تتساقط من الأيدى الرثة .
وبنى زمنى فى تواضعهم لم يتوقعوا
شيئاً »[١] .

هذا هو الفراغ الذهنى الذى أصابها بعد سقوطها إذ « لا شىء » يدور الآن بخلدها سوى أطراف الأظافر التى تتساقط من الأيدى الرثة كناية عن أن حياتها أصبحت الآن عديمة القيمة كأطراف الأظافر التى ترمى فى سلة المهملات . والأيدى الرثة تشير إلى اليد الآثمة التى أقدمت على فعلتها المشينة . أما بنو زمنها الذين لم يتوقعوا منها هذا الانحدار فقد نبذوها لتعيش فى عزلة تامة عن المجتمع .

وبعد هذه الأحاديث المروعة من جانب كل حورية من حوريات البحر الثلاثة ؛ تتجمع هذه الخيوط الفرادى فى الأبيات الأخيرة من هذا الجزء من القصيدة ، وتظهر لنا براعة إليوت فى إحكامها داخل نسيج متماسك ومتسق الأوصال ، إذ يربط تعاليم الشرق بالتعاليم الغربية ، وتلتحم المبادئ الكبرى على المنوال الشعرى الأصيل الذى يرتكز عند إليوت على دعائم قوية من الفلسفات الأخلاقية التى سادت العالم فى عصوره المختلفة . فهو يشير فى خاتمة هذا الجزء إلى القديس أوغسطين وإلى بوذا وكل منهما يمثل فلسفة روحية ضخمة فى أوربا والهند ، إذ يقول :

« ثم جئت إلى قرطاجنة
إننا نحترق ، نحترق ، نحترق ، نحترق
يا إلهى ألقى بى خارجاً
يا إلهى انتزعنى

---

(١) On Margate Sands.
I can connect
Nothing with nothing.
The broken fingernails of dirty hands.
My people humble people who expect
Nothing."
Ibid., p. 72.

نحترق »[١].

يذكر القديس أوغسطين فى اعترافاته أنه عند أول مجيئه إلى قرطاجنة فرجئ بلقاء بعض الصبية المستهترين الذين التفوا حوله . فنبذ عشرتهم ، وتركهم وشأنهم . ثم تضرع إلى الله أن ينتزعه من هوة هذا العالم الملىء بالشرور والمعاصى . أما الإشارة المتكررة إلى « الاحتراق » ففيها يتفق هذا القديس مع بوذا وهو الاحتراق بنار الغوايات الجسدية القائمة على إشباع الرغبات الحسية .

وبهذه الطريقة يختتم إليوت هذا الجزء من قصيدته الذى يعتبره جمهرة النقاد نقطة تحول فى فهم مضمونها . وإدراك سياقها ، ثم تتابع أحداثها ، وتشعب مراميها . وكما تشير هذه الخاتمة إلى التحام الفلسفة الشرقية بزميلتها الأوربية . فهى ترمى أيضاً إلى اتحاد الجسم بالروح ، وفى تغلب كل من هذين العنصرين ضعف للعنصر الآخر . وفى انتعاش الروح التى تسلك طريق الحب الإلهى دحض للحس بأدرانه . وإخماد للنيران الجسدية المتأججة التى تحرق الأفراد والجماعات بسعيرها الملتهب .

* * *

وبعد أن أوضح لنا إليوت كيفية احتراق الجسد بنيران الشهوات المختلفة وأورد لنا أمثلة عديدة فى هذا المضمار . يبين لنا فى الجزء الرابع القصير الذى أطلق عليه « الموت بواسطة الماء »[٢] كيف أن عنصر الماء لا يقل خطراً عن غيره فى هلاك الناس . فيقول :

« مات فليباس الفينيقى منذ أسبوعين .

---

(١) "To Carthage then I came
Burning burning burning burning
O Lord Thou pluckest me out
O Lord Thou pluckest
burning"
Ibid.

(٢) "Death by Water"

ونسى صياح طيور النورس ، وارتفاع مياه البحر ؛
والكسب والخسارة .
والتقط عظامه فى هدوء
تيار منخفض . فأخذ يغاو ويهبط
ويتمثل مراحل حياته كلها وشبابه
إلى أن دخل الدوّامة .
أيها الوثنيون أو اليهود
يا من تديرون دفة السفينة وتتطلعون تجاه الريح
اذكروا فليباس الذى لا يقل عنكم طولا وأناقة »[1] .

لقد سقط فليباس الفينيقى ومات غريقاً ونسى كل شىء عن تجارته ، تتقاذفه الأمواج إلى أن ابتلعته الدوامة كناية عن الاستسلام المطلق لما تخفيه لنا الأقدار . لقد تعلق بدفة السفينة فى حياته كما تعلق بها الكثيرون من قبل ، ونعنى بذلك تمسكه بعجلة الحياة بآلامها وويلاتها ، وفى ذلك رمز لبعده عن منطقة الإرادة الحرة الأبية التى لا تؤمن بمثل هذه الروابط . إن فى علوه وهبوطه كناية عن المكاسب التى أحرزها والخسارات التى لحقت به .

لقد تنبأت مدام سيزوستريس من قبل عن الموت غرقاً وتحققت هذه النبوءة فى فليباس الفينيقى الذى ابتلعه اليم . ولهذا أخذ تايريزياس يفكر جدياً فى

---

(١) "Phlebas the Phoenician, a fortnight dead,
Forgot the cry of gulls, and the deep sea swell
And the profit and loss.
A current under sea
Picked his bones in whispers. As he rose and fell
He passed the stages of his age and youth
Entering the whirlpool.
Gentile or Jew
O you who turn the wheel and look to windward,
Consider Phlebas, who was once handsome and tall as you".
Ibid., p. 78.

طريق آخر لنجاته من الفخاخ المنصوبة له فى « الأرض الخراب » ، بعد أن ثبت له أن البحر غادر . يطوى النفوس بين أمواجه ، ويقلب الأجسام رأساً على عقب فى دواماته . إلى أن تمزقها أسماكه . وتبتلعها حيتانه .

* * *

إن الطريق الذى سيسلكه فى الجزء الخامس والأخير من هذه القصيدة وهو ما أطلق عليه أليوت اسم « ما قاله الرعد » [١] هو طريق البر أو على وجه التحديد عبر الصحراء . وقبل أن يبدأ تايريزياس رحلته الطويلة يتذكر المسيح المصلوب :

« بعد أن ألقت المشاعل وهجها الأحمر على الوجوه التى تتصبب عرقاً
وبعد السكون المطبق فى الحدائق
وبعد الآلام المريرة بالقرب من الصخور الحجرية
ثم العويل والصراخ
فى السجون والقصور
وقصف الرعد وهو يتردد على الجبال البعيدة
الآن قد مات من كان حياً
ونحن الذين كنا أحياء نموت الآن
فى تباطؤ قصير الأجل »[٢] .

إن « السكون المطبق » يمثل فترة المحاكمة حينما قدّم المسيح إلى الحاكم الرومانى بيلاطس البنطى . وهى الفترة التى سبقت إعلان الصلب وما أعقب

---

(١) "What the Thunder Said"

(٢) "After the torchlight red on sweaty faces
After the frosty silence in the gardens
After the agony in stony places
The shouting and the crying
Prison and palace and reverberation
Of thunder of spring over distant mountains
He who was living is now dead
We who were living are now dying
With a little patience."
Ibid., p. 74.

ذلك من تمرد الطبيعة على هذا الظلم .

و بهذه التأملات يبدأ تايريزياس رحلته الشاقة وتجواله فى « الأرض الخراب » فلا يجد فيها طعاماً أو شراباً أو مأوى يلجأ إليه إذا ما هبت العاصفة ، وظهر البرق بغتة فى الأفق البعيد ، وأعقبه قصف الرعد . فترتعش فرائص الإنسان . ويبيت فى حيرة دون أن يدرى ماذا يفعل :

« حيث الصخور بلا ماء
نعم ، الصخرة جافة والطريق ملىء بالرمال
فهو طريق ملتوى عبر الجبال
والجبال صخرية بلا ماء
لو وجدنا الماء لتوقفنا عن المسير وأطفأنا غلتنا
لكنه من العسير علينا أن نتوقف أو نفكر بين الصخور
حيث العرق جاف والأقدام فى الرمال
آه لو وجدنا الماء بين هذه الصخور ،
هذه أسنان جمجمة ميتة كلة لا تستطيع البصق
هنا لا يمكنك الوقوف أو الاسترخاء أو الجلوس
والسكون أيضاً قد فارق الجبال
وحل محله الرعد بجفافه وقحطه إذ كان خالياً من الأمطار
والوحدة قد غابت أيضاً عن الجبال
وظهرت مكانها الوجوه العابسة التى تتهكم وتزمجر
خلف أبواب الأكواخ الطينية بجدرانها المشققة » (١) .

---

(١) "Here is no water but only rock
Rock and no water and the sandy road
The road winding above among the mountains
Which are mountains of rock without water
If there were water we should stop and drink

إن المسرحية الكبيرة التي شملت العالم بأسره في الأجزاء الأربع السالفة تتحول في هذا الجزء الخامس إلى دراما داخلية تتسم بطابع المناجاة وتتأرجح بين اليأس والأمل وإن كان العنصر الغالب عليها هو التقنوط والعذاب النفسي ثم الحيرة الشديدة التي تتجسم في البيت التالي :

« هنا لا يمكنك الوقوف أو الاستيخاء أو الجلوس »

إشارة إلى ما يعانيه بنى البشر في عصرنا الحاضر من ملل وضجر وسأم . أما الجفاف الذي يحدثنا عنه إليوت في هذه الأبيات فهو كناية عن أن الينابيع الحية المتفجرة من روحانية عميقة والتي كانت تنبع فيما مضى من أغوار النفوس البشرية الوضاءة . قد نضب معينها حالياً بعد أن ظللت النفوس غمامة الإثم . فانتشر الجدب . وساءت الأمور . فكانت الفوضى الاجتماعية والخلقية . وبدت الوجوه في عبوسها وضجرها تنشر رسالة السخرية والتهكم والازدراء . وما أشبه هذا الجدب بأسنان داخل جمجمة قد خلت بطبيعة الحال من كل مظاهر الحياة . وهذا هو ما حدث فعلا داخل « الأرض الخراب » . فهذه الجمجمة التي ترمز إلى الموت تشير أيضاً إلى تحلل كل مظاهر الحياة في هذه البرية التي يعيش على أنقاضها المجتمع الحديث .

لكن تايريزياس لم يفقد الأمل نهائياً إذ يعاوده الشوق والحنين إلى تنسم زهرة الحياة . وتتوق نفسه إلى نقطة ماء يطفئ بها غلته :

Amongst the rock one cannot stop or think
Sweat is dry and feet are in the sand
If there were only water amongst the rock
Dead mountain mouth of carious teeth that cannot spit
Here one can neither stand nor lie nor sit
There is not even silence in the mountains
But dry sterile thunder without rain
There is not even solitude in the mountains
But red sullen faces sneer and snarl
From doors of mudcracked houses."
Ibid.

« فلو وجد الماء
بلا صخور
أقول الماء أيضاً
الماء
والينبوع
والمستنقع داخل الصخور
آه لو أسمع صوت الماء
لا صوت الجرادة
أو حفيف الحشائش الجافة
بل صوت الماء فوق الصخور
هنالك حيث العصفور يغرد للناسك على أشجار الصنوبر
قطرة قطرة قطرة قطرة قطرة قطرة قطرة
دون أى أثر للماء »[١] .

فى وسط هذا الخراب تشتاق نفسه إلى طيور السماء وهى تغرد وتنشد للناسك لحن الخلاص ، بعد أن أعياه صوت الجراد الذى ينذر بالقحط . ولشدة لهفته

---

(١) "If there were water
And no rock
If there were rock
And also water
And water
A spring
A pool among the rock
If there were the sound of water only
Not the cicada
And dry grass singing
But sound of water over a rock
Where the hermit-thrush sings in the pine trees
Drip drop drip drop drop drop drop
But there is no water."
Ibid., pp. 74-75.

على الماء يتخيل أنه يتساقط أمامه قطرة بعد قطرة . إن هو إلا طيف عابر قد تراءى له ، وهنا تزداد حيرته ويتساءل :

« من هو ثالثنا الذى يسير دائماً بجوارك ؟
فحينما أحصى العدد لا أجد سواك أنت معى
لكنى إذا تطلعت أمامى على امتداد الطريق الأبيض
أجد شخصاً آخر يسير بجوارك
يسير فى خفة وقد تدثر بعباءة بنية اللون فأخفت وجهه عنا
ترى هل هو رجل أم امرأة ؟
— ولكن من هو الذى يسير بجوارك ؟ »(١)

تشير هذه الأبيات إلى ظهور المسيح لاثنين من التلاميذ وهما فى طريقهما إلى بلدة عمواس (٢) لكنهما لم يتمكنا من رؤيته مع أنه كان يسير بجوارهما . وحالهما فى هذه المرحلة من حياتهما شبيهة بحال تايريزياس الذى لا يدرك أن الحقيقة ماثلة أمامه . إن فى تدثرها إخفاء كلى لها ، فنحن لا نعلم الآن عن كنهها شيئاً . كما أن فى سؤال تايريزياس الحائر : « هل هو رجل أم امرأة ؟ » صدى وانعكاساً لما نتخبط فيه من جهالة . إنه لا يدرك أن الحياة فى أصلها نابعة من الموت كما أشار إليوت فى مستهل هذه القصيدة إلى المعتقدات القديمة حول آلهة الخصب والنماء وظهور الخضرة من حبات النبات المدفونة فى باطن الأرض . ويعود فيتساءل :

---

(١) "Who is the third who walks always beside you ?
When I count, there are only you and I together
But when I look ahead up the white road
There is always another one walking beside you
Gliding wrapt in a brown mantle, hooded
I do not know whether a man or a woman
— But who is that on the other side of you ?"
Ibid., 75.

(٢) Emmaus

« ما هذا الصوت الذى يدوى فى الفضاء ؟
صوت النساء وهن يندبن .
ما هى هذه الجموع المتدثرة ؟ لقد احتشدت
على السهول التى تمتد فيما لا نهاية ، تتعثر فى شقوق الأرض
لا يحدها سوى الأفق المترامى .
وما هذه المدينة المقامة على الجبال
بفجواتها وإصلاحاتها وانفجاراتها المدوية فى الفضاء ؟
الأبراج قد تداعت وهوت
وأورشليم وأثينا والإسكندرية
. وفينا ولندن
كلها خيالات وأوهام »[1] .

يشير إليوت فى هذه الأبيات إلى بكاء النساء بعد موت الآلهة أوزيريس وتاموز وآتيس ثم ظهور بعض الأدعياء الذين تجمهروا على سهول أوربا وآسيا يحاولون جذب الناس إليهم بشتى الطرق . ولقد أدى ذلك إلى اضمحلال المدنيات العظيمة القديمة ، وحل محلها مدن ضخمة واهية ، فكل من أورشليم وأثينا والإسكندرية وفينا ولندن كانت لها شهرتها التاريخية والدينية والعلمية . أما الآن فلقد أصبحت كلها خيالات فى غير تماسك ، وأوهاماً فى غير ترابط . إنها

(١) "What is that sound high in the air
Murmur of maternal lamentation
Who are those hooded hordes swarming
Over endless plains, stumbling in cracked earth
Ringed by the flat horizon only
What is the city over the mountains
Cracks and reforms and bursts in the violet air
Falling towers
Jerusalem Athens Alexandria
Vienna London
Unreal."
Ibid.

تضم بين جدرانها المتداعية .

« السيدة التى تلف شعرها الأسود
كأنها تحرك أناملها على الأوتار الموسيقية بنغماتها الخافتة
والخفافيش ذات الوجوه التى تشبه وجوه الأطفال تطير وقت الغسق
بأصواتها المشؤومة ؛ وترفرف أجنحتها
ثم تنقض برؤوسها على الحائط الأسود
أما الأبراج فقد بدت أعاليها فى أسافلها
تدق نواقيس الذكرى فنعرف بها الدقائق والسويعات
وقد انبعثت الأصوات الغنائية من الأحواض الفارغة والآبار الخاوية »(١)

لقد أصبحت « الأرض الخراب » مأوى للبوم والخفافيش . إن فى انقلاب الأبراج كناية عن انحسار الآمال وبلبلة الأمانى والغايات . أما الأحواض الفارغة والآبار الخاوية فهى تشير إلى الهواجس التى يتردد صداها فى نفوسنا بعد أن خلت من مياه المعرفة الحقة . فلا غرو إن دقت الأجراس لتعلن لنا أن الخطر محدق بنا وتذكرنا بقرب وقوعه . وبهذه الصلصلة المتقطعة يقترب تايريزياس من نهاية رحلته

« فى هذا الكهف المتآكل بين الجبال
وعلى ضوء القمر الخافت ؛ وحفيف الحشائش
فوق المقابر المتداعية حيث يوجد المعبد .

---

(١) "A woman drew her long black hair out tight
And fiddled whisper music on those strings
And bats with baby faces in the violet light
Whistled, and beat their wings
And crowled head downward down a blackened wall
And upside down in air were towers
Tolling reminiscent bells, that kept the hours
And voices singing out of empty cisterns and exhausted wells."
Ibid., pp. 75-76.

نعم ، لقد كان المعبد خاوياً والريح ساكنة
ولم يكن به نوافذ كما أن بابه ظل يتأرجح ،
والعظام الجافة التى به لا تصيب أحداً بسوء .
أما الديك فقد اعتلى غصن الشجرة الكبير وصاح بأعلى صوته
كوكو ريكو كوكو ريكو
وظهر وميض البرق بغتة . وأعقبه نفحة رطبة
محملة بالأمطار »[١] .

تذكر لنا مس وستون فى كتابها « من الطقس إلى القصة الخيالية » أن هذا المعبد قد ورد ذكره فى الأساطير القديمة تحت اسم « المعبد الخطر[٢] » إذ أن الطريق إليه محفوف بالمخاطر . ولم يكن هناك فى المنطقة المجاورة له سوى مجموعة من الأحجار المتراكمة ومقابر قديمة تعلوها بعض الحشائش . أما العظام الجافة فتشير إلى الفرسان الذين عبروا « الأرض الخراب » وأرادوا تخليصها من الويلات والكوارث التى ألمت بالزرع والضرع ولم يفلحوا فى فهم السر من إقامة المعبد أو كنه وجوده ، كما أنهم فشلوا أيضاً فى معرفة القيمة الرمزية لذلك الطريق الموحش المؤدى إلى المعبد ، فالخوض فى غمار عالم الموت السفلى بعظامه المتناثرة كثيراً ما يؤدى إلى كسب بعض المعرفة الروحية وتذكرة الإنسان بالموت والفناء وبعث الروح وحيويتها بعد أن توارى الجسد فى الثرى .

---

(١) "In this decayed hole among the mountains
In the faint moonlight, the grass is singing
Over the tumbled graves, about the chapel
There is the empty chapel, only the wind's home.
It has no windows, and the door swings,
Dry bones can harm no one.
Only a cock stood on the roofiree
Co co rico co co rico
In a flash of lightring. Then a damp gust
Bringing rain."
Ibid., p. 76.

(٢) Chapel Perilous

لكن تايريزياس لم يدرك شيئاً من هذه الحقائق كلها ، شأنه فى ذلك شأن من سبقوه من ذوى الشجاعة والإقدام الذين أرادوا الخير لهذه « الأرض الخراب »، فلا عجب إن « كان المعبد خاوياً والريح ساكنة » . وهذا المعبد رمز مجسم للقيم الروحية فى عصرنا الحاضر ، وقد أصبح خاوياً لأنه لا يحمل أى معنى لنا الآن ، فمن العسير أن نجد أى صدى لهذه القيم فى العقلية الآلية التى تسيرها النفعية وتتحكم فيها المادية . فلقد كانت دور العبادة فيما مضى على اختلاف ألوانها ومللها ونحلها رمزاً للقوى الروحية العظيمة التى يجد فيها الحائر قوة ، والحزين عزاء ، والمضطرب راحة . لكنها الآن قد أصبحت خاوية بعد أن هجرها العالم الحاضر وسار فى غيه دون هدف أو روية .

وفى وسط هذا الخراب المخيم على كل مناحى هذه الأرض ارتفع صوت الديك وهو يعلن أن الظلام قد ولى ورحل وأن فجر يوم جديد قد بزغ . إن فى تقطع صوت الديك معنى التهديد والوعيد ، كما فى تردده رمز لدفع قوى الشر المظلمة وإحلال لقوى الخير محلها . وهو فى كل هذه المراحل يعلن قدوم الأمطار وإنبات الزرع ، ولكن ذلك يتوقف حتماً على نجاح تايريزياس فى مهمته :

« فلقد غرق وادى نهر الكنج بعد أن ذبلت الأوراق
لطول انتظار هطول الأمطار ، وتجمعت السحب السوداء
على مرتفعات هيماڤانت البعيدة
وتلبدت الأدغال واحدودب شكلها فى صمت »[1] .

بعد هذه الأبيات يتجه إليوت إلى الفلسفة الآرية وهو يحاول جاهداً أن

---

[1] "Ganga was sunken, and the limp leaves
Waited for rain, while the black clouds
Gathered far distant, over Himavant.
The jungle crouched, humped in silence."
Ibid.

يمزج الفلسفات الحديثة بالمعتقدات الأولى للبشرية . فلقد ورد فى مخطوطات الأوپانيشاد[١] للبراهمة القدماء أن الإله براجاباتى[٢] وهو الكائن الأعظم واهب الحياة وصاحب السلطان على الأحياء والأموات ورمز الخلود ، قد صاح فى تلاميذه بصوت من رعد (وهذا يفسر لنا عنوان هذا الجزء الأخير من قصيدة « الأرض الخراب » وهو « ما قاله الرعد ») بعد أن أتموا دراستهم قائلا : « أعطوا بسخاء »[٣] و « كونوا رحماء »[٤] و « اكبحوا جماحكم . »[٥] وهذه الوصايا الثلاثة مكتوبة بطبيعة الحال باللغة السنسكريتية . ويقول إليوت فى الوصية الأولى :

« ثم تكلم الرعد قائلاً :

دا

أعطوا بسخاء : أما نحن فماذا أعطينا ؟

لقد تحركت دمائى يا صديقى فاهتز لها قلبى

إن لحظة الاستسلام تستلزم منا جرأة بالغة

حينئذ لا يمكن لعصر متكامل بالفطنة أن ينتزعها منا

فبواسطتها وحدها كانت لنا الحياة

إذ ليس لها وجود فى تأبين الراحلين عنا

أو بين خيوط الذكريات التى ينسجها العنكبوت الخيِّر

---

(١) "Upanishad"
(٢) Pragâpati
(٣) Datta (i.e. give)
(٤) Dayadhvam (i.e. be merciful)
(٥) Dâmyata (i.e. be controlled)

إن كلمة « أوپانيشاد » مؤلفة من مقطعين : « أوپا » ومعناها بالقرب و « شاد » ومعناها يجلس ، ومن « الجلوس بالقرب » من المعلم انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض الذى كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه . وفى الأسفار مائة وثمان محاورات مما جرى بين المعلم وتلاميذه ألفها كثير من النساك والحكماء بين عام ٨٠٠ ، ٥٠٠ ق . م . وأسفار الأوپانيشاد قد ظلت للهند إلى يومنا هذا بمنزلة الكتب المقدسة .

أو تحت الأختام التى هشمها المحامى المزيل
فى حجراتنا الخاوية[١] » .

يتساءل إليوت عما أمكننا التنازل عنه للفقراء والمحتاجين من زكاة وعشور وغيرها . إن فى البذل أو العطاء سمو بالنفس ، وتسامى عن المادة ، وشعور بألم الفقير ، ولحظة من لحظات الاستسلام التى كانت تنطوى فيما مضى على الاستسلام المطلق للخالق جل شأنه . إن حياتنا الآن وذكرياتنا التى نحييها بين حين وآخر عن الراحلين عنا قد خلت من عناصر الرضى والعطف والإحساس بألم المحتاج ثم الاستسلام لإرادة الله ، وهذه كلها كانت متأصلة فى نفوس القدامى ، فتعذر انتزاعها حينذاك إذ كانت موطدة الأركان ، قوية البنيان .

أما الوصية الثانية فيقول عنها إليوت :

« دا

كونوا رحماء : فلقد سمعت المفتاح
وهو يدور فى الباب ليفتحه دفعة واحدة ولن يعيد الكرّة
إننا نفكر فى المفتاح ، وكل منا داخل صومعته
يفكر فى مفتاحه . ويحكم غلق هذه الصومعة
حينما يحل الليل . هذه الأخبار المتناثرة

---

(١) "Then spoke the thunder
DA
Datta : what have we given ?
My friend, blood shaking my heart
The awful daring of a moment's surrender
Which an age of prudence can never retract
By this, and this only, we have existed
Which is not to be found in our obituaries
Or in memories draped by the beneficent spider
Or under seals broken by the lean solicitor
In our empty rooms."
Ibid., pp. 76-77.

قد تبعث الأمل من جديد فى نفس كوريولانوس المحطمة »[١] .

إن كلاً منا يهرع إلى بيته ويغلق بابه ولا يفكر فى أحد سواه . هذه هى الأنانية التى يشير إليها إليوت فى الأبيات السالفة . ولهذا لا وجود للرحمة فى مجتمع مغلق أنانى قائم على الانعزالية وتظلل جوانحه الانفرادية . فالنفس الحبيسة داخل صومعة حب الذات لا تحس بمتاعب غيرها أو بمشكلاتهم ، وهى شبيهة فى هذه الحالة بشخصية كوريولانوس التى كتب عنها شكسبير مسرحيته المعروفة ، فهو الذى خر صريعاً أمام أنانيته بعد أن باع بلده وخان وطنه .

وفى الوصية الثالثة والأخيرة يقول الشاعر :

« دا

اكبحوا جماحكم : لقد انساب القارب
فرحاً باليد التى توجه مجدافه وشراعه
وكان البحر هادئاً ، هكذا ينساب قلبك
فرحاً بنبضاته المستجيبة الطائعة حينما تدعوه
الأيادى الحكيمة »[٢] .

إن فى كبح جماح النفس انسياب للإرادة الحرة واستجابة داخلية للحكمة

---

(١) "DA
Dayadhvam : I have heard the key
Turn in the door once and turn once only
We think of the key, each in his prison
Thinking of the key, each confirms a prison
Only at nightfall, aethereal rumours
Revive for a moment a broken Coriolanus."
Ibid., p. 77.

(٢) "DA
Damyata : The boat responded
Gaily, to the hand expert with sail and oar
The sea was calm, your heart would have responded
Gaily, when invited, beating obedient
To controlling hands."
Ibid.

الأصيلة البعيدة عن الشهوات والنزوات . وهدوء البحر دليل على الراحة النفسية التى يتمتع بها أولئك الذين لم ينجرفوا فى تيار ملذاتهم بل وضعوا ضبط النفس نصب أعينهم فكان رائداً لهم طوال حياتهم .

لكن تايريزياس لم يستجب لهذه النصائح بل سار فى غيه دون وعى منه ، مطلقاً العنان لرغباته ، فأصبح نهباً للصراع الدرامى ، تتقاذفه الأهواء يمنة ويسرة ، فتحركه كيفما شاءت ، وتنقله إلى أجواء ليس له عهد بها من قبل . وفى وسط هذه الحيرة البالغة يختم حديثه بقوله :

« وجلست على الشاطئ
ثم ألقيت شصى ، وخلفى السهل القاحل
ترى هل فى مقدورى أن أبعث شيئاً من النظام فى هذه الأراضى ؟
لقد تداعت قنطرة لندن ثم هوت وسقطت
أما هو فلقد ألقى بنفسه وسط النيران التى تطهر النفس
أوه أيها العصفور . متى سأصير مثلك ؟
ها هو أمير أكيتين[1] صاحب القلعة المهدمة
لعلى أخفى حطامى وسط هذه المقتطفات المبعثرة
وسأريحكم بالقدر المناسب . أما هيرونيمو فقد عاد إلى جنونه .
أعطوا بسخاء ، وكونوا رحماء ، واكبحوا جماح أنفسكم .
السلام الذى يفوق العقل ، السلام الذى يفوق الإدراك ،
السلام الذى لا يحد »[2] .

---

(١) أكيتين هى إحدى مقاطعات بلاد الغال قديماً وهى تقع فى حوض نهر الجارون .

(٢) "I sat upon the shore
Fishing, with the arid plain behind me
Shall I at least set my lands in order ?
London Bridge is falling down falling down falling down
Poi s'ascose nel foco che gli affina
Quando fiam uti chelidon — O swallow swallow

تعتبر هذه الأبيات من أصعب أجزاء القصيدة وذلك لإشاراتها العديدة لمواضيع مختلفة . وهنا نشاهد تايريزياس وقد ألقى بشصه فى الماء ليصطاد السمك بعد أن أخفق فى مهمته وهى تخليص « الأرض الخراب » من عذابها وويلاتها وإعادة حياة الخصب والنماء لها ، ذلك أنه لم يدرك شيئاً عن الوسائل القويمة لهذا الخلاص وهى العطاء والرحمة وضبط النفس ، إذ ما زالت صومعته الداخلية تجذبه إليها بشدة ، وما زالت دوافع الأنانية تتحكم فيه . هذا إلى أنه غير مستعد للرضوخ إلى أحكام الماضى كما تتمثل لنا فى الفلسفة الأخلاقية عند قدماء البراهمة . ثم إن سؤاله التالى الذى به يفتد قدرته على إصلاح « الأرض الخراب » :

« ترى هل فى مقدورى أن أبعث شيئاً من النظام فى هذه الأراضى ؟ » سؤال استنكارى يحمل معه الإجابة بالنفى . فلقد عجز عجزاً تاماً عن إصلاح أراضيها ، كما أن وميض الأمل الذى كان يراود أهلها ، قد تبدد آخر الأمر فى نهاية القصيدة بعد أن فشل تايريزياس هذا الفشل الذريع . فلا عجب إن هوت قنطرة لندن كناية عن تداعى المدنية الحديثة بأسرها ، فلقد سقطت القنطرة وجرت معها المدنية الأوربية برمتها ، ذلك أنها شيدت على صرح آلية ، وارتكزت على أعمدة مادية خالصة . ويرى إليوت أن فى تدعيم المدنية الحديثة بالمبادئ والمثل العليا الأخلاقية وبالفلسفات الروحية قديمها وحديثها خلاص لها ، ونجاة لأرض أوربا الخراب من الخطر المحدق بها . وهو يؤمن إيماناً قاطعاً بالقدرة على تطهير النفس من أدران الرذيلة ، ويحدوه هنا مثال من « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وهذا هو نصه الأصلى :

Le Prince d'Aquitaine à la tour abolie
These fragments I have shored against my ruins
Why then Ile fit you. Hieronymo's mad againe.
Datta. Dayadhvam. Damyata.
Shantih shantih shantih."
Ibid.

« من أجل هذا الصلاح
الذى يقودك إلى أعلى درج فى السلم ؛
أرجو أن تذكر آلامى فى الوقت المناسب ؛
ثم غاص مرة أخرى فى النيران التى تطهر الجميع »[١] .

وقد وردت هذه الكلمات فى « المطهر » على لسان أرنوط دانيال [٢] الذى طلب من دانتى أن يتذكره أثناء رحلته ثم رجع إلى النيران التى تطهر الخطاة .

إن تايريزياس فى قيوده الكثيرة يتمنى أن يحيا حياة طيور السماء وهى حياة الحرية والانطلاق والبعد عن هذا العالم الصاخب بريقه الخارجى . وهو يحس فى قرارة نفسه أن هذه الأرض قد نبذته ، وحاله فى ذلك شبيه بأمير أكيتين الذى ورد ذكره فى قصيدة « الديسديشادو » للشاعر الفرنسى جيرارد دى نيرفال .[٣] ولعلنا نلمس فى ثنايا القصيدة محاولاته المتكررة بجلب الراحة لأهل تلك الأرض ، فبذل كل ما فى وسعه للتوفيق بينهم وبين المبادئ التى تصبو إليها نفسه . إن هو فى ذلك إلا هيرونيمو الذى حدثنا عنه طويلا الكاتب المسرحى الإنجليزى توماس كيد (١٥٥٧ — ١٥٩٥) فى مسرحيته « التراجيديا الإسبانية »[٤] فلقد قطع أعداؤه ابنه هوراشيو[٥] إرباً إرباً وأراد أن ينتقم منهم

---

(١) "Ara vos prec, per aquella valor
que vos guida al som e l'escalina,
sovegna vos a temps de ma dolor.'
Poi s'ascose nel foco che gli affina."

("'Now I pray you, by that Goodness which guideth you to the summit of the stairway, be mindful in due time of my pain.' Then dived he back into that fire which refines them.")

Dante Alighieri, *The Purgatorio*, Canto XXVI. London : The Temple Classics, 1901, pp. 330-31.

(٢) Arnaut Daniel

(٣) Gérard de Nerval's "El Desdichado"

(٤) Thomas Kyd's "Spanish Tragedie"

(٥) Horatio

فتظاهر بالجنون كما فعل هاملت . ووجد هيرونيمو الفرصة مواتية حينما جاء إليه بعض رجال البلاط وطلبوا منه أن يكتب لهم مسرحية لتمثل أمام الملك وحاشيته ، فأجابهم على الفور : « إننى سأريحكم بالقدر المناسب . » فلقد كتب هيرونيمو مسرحية فى صباه ووجد أن فى تقديم هذه المسرحية واشتراكه فى القيام بها ثم اختياره بعض شخصياتها من بين أولئك الذين سفكوا دماء ولده هوراشيو فرصته الوحيدة للانتقام . وبعد تردد طويل تم له ما أراد ، أما تايريزياس فلم يحقق شيئاً من مآربه ، فلا غرو إن أخفى حطام نفسه وسط المجتمع المتداعى . وهذه «المقتطفات المبعثرة » التى يشير إليها إليوت هى الاقتباسات العديدة التى لمسناها فى سياق هذه القصيدة وبخاصة فى جزئها الأخير . ويرى إليوت أن فى تناثر هذه المقتطفات صدى أميناً للمجتمع المفكك الذى نعيش فيه والمدنية الصاخبة التى نحيا فى وسطها .